أندريه جيد

اللاأخلاقي

روايات جائزة نوبل

1

الدار المصرية اللبنانية

ترجمة محمود قاسم



أنـــدريه جـــيد

نوبل / 1947

ترجمة **محمـود قاســم**

روايات جائزة نوبل

1

روايـــات جائـــزة نـوبـــل

سلسلة تصدرها

الـدار المصرية اللبنـانية

المـديــر العـــام : **محمد رشـــاد**

رئيس التحـريـــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحــى**

---

16 شـارع عبـد الخالق ثروت ـ تليفـون : 3910250 ـ فاكـس : 3909618

ص.ب 2022 ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة

E - mail:info @ almasriah. com

WWW . almasriah . com

رقم الإيداع : 94 / 2745

الترقيم الدولى : 6 - 128 - 270 - 977

الطبعة الأولى : 1414 هـ ـ 1994 م

الطبعة الثانية : ذو الحجة 1424 هـ ـ فبراير 2004 م

إلى السيد / د . ر

رئيس المجلس

« سيدى ب . م . ٣٠ من يوليو عام ١٨٩٠ »

نعم ، أنت تذكره جيداً ، فكم حدثنا عنه أخونا العزيز ، إنه ميشيل . ها هو ذا النص الذى كتبه لنا ، لقد طلبته ، ووعدتك بذلك ، لكننى ترددت كثيراً لحظة إرساله ، وعندما أعدت قراءته بدا لى مخيفاً . آه ! ماذا ستعتقد فى صديقنا ؟ ثم كيف أراه أنا بدورى ؟ فلنقل بكل بساطة : إننا يمكن أن نعرف كفاءات تبدو بالغة العمق ، مما يعطينا مساحة للانتظار ، وهذا ما أخشاه ، فمن منا لا يستطيع أن يتعرف فى هذا النص على نفسه ؟ هل يمكن أن نجد وظيفة لشخص يملك الكثير من الذكاء والقوة ، أو نأبى عليه كل هذه الحقوق المدنية التى يستحقها ؟

ترى فى أى مجال يمكن لميشيل أن يخدم بلده ؟ أعترف أننى لا أعرف الإجابة ... يلزمه أن يشغل المكانة العليا التى تشغلونها ، السلطة التى تمسك بها . هل سيسمحون له أن يحصل عليها إذن ؟ . أسرع ، فميشيل مُمْتَن ، وهو هكذا دائماً ، وسوف يكون قريباً أكثر من ذلك .

أكتب لك من تحت سماء صافية ، نحن هنا منذ اثنى عشر يوماً . أنا ،

ودانييل ، ودنيس ، لا سحب ولا حجب للشمس . ويؤكد ميشيل أن السماء نقية منذ شهرين .

لست حزيناً ، ولا مبتهجاً ، فالجو هنا يملؤك بقدسية بالغة العمق ، ويجعلك تعرف شيئاً يبدو لك بعيداً عن البهجة أكثر من الألم ، وربما أكثر من السعادة .

نحن على مقربة من ميشيل ، ولا نود أن نتركه ، سوف تفهم السبب إذاً ، وددت أن أقرأ لك هذه الصفحات ، فنحن هنا فى دارك ، وننتظر إجابتك ، وأرجو ألَّا تتأخر فى الرد عليها .

أنت تعرف أى صداقة جامعية قوية ربطتنا ، كانت تكبر فى كل عام ، وتربط ميشيل بدنيس وبى ، فبيننا نحن الأربعة نوع من التعاقد الضمنى، أو على الأقل إذا نادى أحدنا فعلى الثلاثة الآخرين أن يلبوه . وعندما جاءتنى هذه الصيحة التحذيرية الغامضة من ميشيل ، سرعان ما أخبرت دانييل ودنيس . وعلى الفور رحلنا نحن الثلاثة .

لم نر ميشيل منذ ثلاث سنوات ، لقد تزوج ، ورافق امرأته فى رحلة ، وعند مروره الأخير على باريس كان دنيس فى اليونان ، ودانييل فى روسيا ، أما أنا فقد كنت ـ كما تعرف ـ قريباً من أبينا المريض ، ومع ذلك لم تنقطع عنا أخباره الجديدة ، فقد وردت أنباء عن « سيلا » و « ويل » اللذين رأياه ثانية . لم تدهشنا هذه الأخبار . فقد كان هناك تَغيُّـرٌ فى داخله ، ولم نستطع أن نفسر سببَ ذلك . لم يكن ذلك هو الصفاء البالغ الوضوح الذى كان يتسم به منذ عهد قريب ، ولا حركاته الحمقاء التى كان يفعلها ، ولا

نظراته البالغة الوضوح التى تنتابنا دائماً الرغبة أمامها فى أن نتوقف . لقد كان ... ولكن لماذا أحدثك إذن عن شىء سيقوله لك هذا النص .

أرسل إليك هذا النص ، عمَّا سمعه كُلٌّ من دنيس ودانييل وأنا ، لقد كتبه ميشيل فى شرفته ، حيث كنا نتمدد على مقربة منه فى الظل ، أو فى ضوء النجوم ، وفى نهاية النص رأينا ضوء النهار يشرق على الوادى ويعلو منزل ميشيل ، وأيضاً القرية التى لم تكن تبعد عنا كثيراً . كان هذا الوادى أشبه بالصحراء ، فدرجة حرارته عالية ، وهو كثيف العشب .

وبرغم أن منزل ميشيل كان فقيراً وغريباً ، فإنه كان ساحراً ، وفيه يعانى الناس من البرد شتاءً ؛ لأنه لم يكن هناك زجاج فى النوافذ ، أو بالأحرى نوافذ ، ولكن كانت هناك فتحات فى الجدران ؛ لذا كم كان جميلاً أن ننام فى الخارج فوق المفارش .

أقول لك أيضاً إننا قضينا رحلة ممتعة ، وصلنا إلى هنا ذات مساء وقد أنهكنا الحر . واستبد بنا السكر من جديد ، لقد توقفنا قليلاً فى الجزائر ، ثم القسطنطينية ، ومن القسطنطينية ركبنا قطاراً توجه بنا إلى « سيدى ب . م» . حيث كانت تنتظرنا عربة « حنطور » . كان الطريق مليئاً بالقرى، بعضها معلق فى قمة صخرية مثل بعض بلدان « عنبرى » . صعدنا إليها على أقدامنا ، ووضعنا متاعنا فوق بغلتين ، وعندما سلكنا هذا الدرب كان منزل ميشيل أول بيت فى القرية . له حديقة تحوطها الجدران الواطئة، أو بالأحرى تحوطها أرض مسورة تقطعها ثلاث أشجار رُمان وشجرة « دنيبة » . كان هناك طفل قبلى أسرع بالفرار بمجرد أن رآنا نقترب ، وقفز عبر السور .

استقبلنا ميشيل بدون أن تبدو عليه البهجة ، وسرعان ما أعد العشاء فى قاعة أدهشنا ديكورها الرائع ، لعل هذا سيفسر لك نص ميشيل ، ثم قدم لنا القهوة التى أعدت بعناية شديدة ، ثم خرجنا إلى الشرفة حيث تمتدالرؤية إلى ما لا نهاية ، وشرعنا ثلاثتنا كأصدقاء قدامى نتغزل فى التل، وسرعان ما حل الليل .

وما إن حل الليل حتى قال ميشيل :

القسم الأول



1

الأعزاء ، أعرفكم أوفياء ، وعندما أنادى تلبون جميعكم ، مثلما أفعل معكم ، وبرغم أنكم لم ترونى منذ ثلاث سنوات ، فإن صداقتكم ظلت تقاوم هذا الغياب الطويل ، وتقاوم أيضاً هذا النص الذى أريد أن أسطره لكم ؛ لأننى حين استدعيتكم فجأة وسافرتم حتى مسكنى البعيد فذلك لأننى أريد رؤيتكم ، وكى يمكنكم سماعى لا أبغى سوى أن أتكلم إليكم ؛ لأننى وصلتُ إلى نقطة من حياتى لا يمكننى أن أتجاوزها ، رغم أن هذا ليس مثيراً للملل ، ولكننى لم أعد أفهم المزيد ، كم أنا فى حاجة لأن أتكلم إليكم ، وأتحدث معكم ، وأعرف أن التحرر ليس شيئاً منشودًا ، وأن من القسوة على المرء أن يعرف أنه حر ، أنتم تعانون لأننى أتكلم عن نفسى ، سوف أقص عليكم قصة حياتى ، بكل وضوح ، وبتواضع ، وبلا مكابرة ، وبمنتهى البساطة سوف أتكلم عن نفسى ، فاستمعوا إلَىَّ :

فى المرة الأخيرة التى رأى فيها بعضنا البعض ، كان ذلك على ما أذكر فى ضاحية « انجر » ، فى كنيسة ريفية صغيرة . حيث أقيم حفل زفافى ، كان عدد المدعوين قليلاً ، وقد جعل تميُّز الأصدقاء فى هذه الليلة الحفل مؤثراً ، بدا لى أنهم قد أصابهم التأثر، وقد هزنى هذا كثيراً ، ففى منزل الفتاة التى أصبحت زوجتى أقيم حفل عشاء بسيط ، خالٍ من الضحكات

والصيحات . لقد جمعكم هذا العشاء بعد الخروج من الكنيسة ، ثم أقلتنا السيارة التى طلبناها ، وحسب الفكرة التى تعتمل فى أرواحنا فإن السيارة كانت بمثابة رصيف للرحيل .

كنت أعرف القليل عن زوجتى ، وفكرت ، بدون معاناة طويلة ، أنها لم تعرفنى جيداً ، لقد تزوجتها عن غير حب ، وذلك بدافع مجاملة أبى ، الذى كم خاف أن يموت ويتركنى وحيداً . كنت أحب أبى كثيراً ، وكنتُ مهموماً بمعاناناته . وفكرت ـ وهو فى لحظات أحزانه ـ أن أجعل نهايته أكثر رقة ، وأن أربط حياتى بالفتاة دون أن أعرف ماذا تكون الحياة ، وتمت خطبتنا فوق فراش أبى بلا أى فرصة ، وأيضاً بلا أى بهجة ظاهرة ؛ لأن السلام الذى كان أبى يبحث عنه بدا حبًّا ، وإذا لم أكن قد أحببت خطيبتى ـ كما قلت ـ إلا قليلاً فإننى لم أكن أحب امرأة أخرى ، وكان هذا يكفى فى ناظرى أن أجد سعادتنا . وألاَّ أعلم شيئاً عن نفسى ، اعتقدتُ أننى منحتها أشياء كثيرة ، فقد كانت يتيمة مثلى وتعيش مع أخويها . كانت تسمى مارسلين ، وتكاد تبلغ العشرين من العمر ، أما أنا فأزيد عليها أربع سنوات .

قلت إنى لم أحبها قط ، على الأقل لم أمثل لها شيئاً مما يُسمى حبًّا ، ولكننى أحببتها بما يمكن تسميته حناناً وشفقة ، وأيضاً من الاحترام المتناهى ، كانت كاثوليكية ، أما أنا فبروتستانتى ، وأقل إيماناً ! وافق القس علىَّ ، ووافقت على القس ، وتم هذا بدون أى أحداث غير عادية .

كان أبى ـ كما يقال ـ عقلانيًّا ، أو كما أعتقد ، ليست لديه أفكار عن الفضيلة التى كنت أتصور أنه يمتلكها ؛ لذا لم أناقشه قط فى مسألة عقلانيته . أما الأشياء التى تعلمتها من أمى ، فقد مُحيت ، مع وجهها

الجميل ، ببطء عبر الزمن ، أنتم تعرفون أننى فقدتها وأنا صغير السن ، ولم أشك قط فى هذه الأفكار التى سيطرت على طفولتى ، ولم يعلق بذهنى شىء عن فكرها ، فهذا النوع من الزهد الذى تركته لى أمى قد أسفر عن ترسيخ المبادىء ، وقد حملتها معى كلها أثناء الدراسة ، فقدت أمى وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى، وانشغل بى أبى ، وأحاطنى ، ولفنى بمشاعره، واهتم بتعليمى ، كنت أعرف آنَ ذاك اللاتينية واليونانية ، وتعلمت معه العبرية بسرعة ، والسنسكريتية ، وأخيراً الفارسية والعربية . وعندما بلغت العشرين كنت شديد الحماس ، لدرجة أنه أشركنى فى أعماله، وراح يتصرف كأنه ندّ لى، وأراد أن يختبرنى بشأن دراسة فى عبادات الفريجان التى نشرت حاملة اسمه ، لم يكن هناك شىء يمكن أن يوفيه تقريظاً . كان ممتنًّا ، أما بالنسبة لى فقد كنت مشوقاً لرؤية نجاح هذا التزييف ، ولكن منذ تلك اللحظة لم أعبأ بهذا الأمر ، فالعلماء الأكثر علماً قد عاملونى على أننى زميل لهم ، وهأنذا أبتسم الآن من كل الشرف الذى نلته . . . وهكذا بلغت الخامسة والعشرين ، ولم أكن أنظر إلا إلى أطلال أو الكتب القديمة، لا أعرف شيئاً آخر عن الحياة ، وأقوم بعملى بحمية خاصة ، أحببت أصدقائى (وأنتم منهم) . وكنت أكن لهم مشاعر الصداقة الحقيقية ، فقد كان إخلاصى لهم كبيراً ، وذلك بدافع الأخلاق النبيلة ، وعلقت فى داخلى كل إحساس جميل ، وبرغم كل ذلك ، فقد كنت أجهل أصدقائى ، مثلما أجهل نفسى ، ولم تخطر على بالى ، للحظة ، فكرة أننى أستطيع أن أحيا حياة مختلفة ، ولا أن أعيش بطريقة أخـرى .

كان لـدى أبى، ولدىّ أشياء قليلة تكفينا ، فقد أسرف كلانا قليلاً ،

وبلغت الخامسة والعشرين بدون أن أعرف أننا أثرياء ، وكم تخيلت ـ بدون أن أفكر دوماً ـ أننا نملك فقط ما يكفينا للمعيشة ، لقد اعتدت وأنا على مقربة من أبى على التدبير . وما لبثت أن فهمت أننا نملك الكثير جدًّا، كنت إلى هذا الحد أجهل الأشياء ، ولم يحدث هذا إلا بعد وفاة أبى الذى كنت وريثه الوحيد ، وأصبحت أكثر وعياً لِنَـزْوَتى ، وخاصة عندما وقعت عقد زواجى ، وأدركت أن مارسلين لن تجلب لى شيئاً .

هناك شىء آخر مهم للغاية كنت أجهله ، هو أننى كنت فى حالة صحية حساسة، وكيف لى أن أعرف ذلك ، خاصة أننى لم أختبر فى ذلك ؟ كان الروماتيزم يصيبنى من وقت لآخر ، وأهملت فى علاج نفسى منه ، فالحياة الهادئة التى كنت أحياها أحياناً أصابتنى بالضعف العام ، كما بدت لى ـ أحياناً ـ قوية ، وهذا ما كان يجب أن أعرفه .

قضينا ليلة عرسنا فى شقتى الباريسية ، حيث أعددنا سريرين ، لم نبق فى باريس سوى الوقت الذى كان يلزمنا فيه أن نشترى بعض أشياء ، ثم اتجهنا إلى مارسيليا ، ومن هناك أبحرنا إلى تونس .

ثم انتهت الأحداث الأخيرة بسرعة ، وحلت مشاعر حفل الزفاف بعد فترة العزاء الحقيقية ، ولم أحس بها عانيته ،إلا فوق المركب ، حيث استطعت أن أحس بتعبى ، خاصة فى كل عمل ، وحينها كنت أتسلى . كان وقت الفراغ الذى أقضيه فوق سطح المركب يتيح لى فرصة التفكير ، وبدا لى كأن هذا يحدث لأول مرة .

وللمرة الأولى أيضاً وافقت أن أتخلص من عملى لفترة طويلة ، لم أكن مرتبطاً آن ذاك إلا بإجازات قصيرة . رحلة إلى إسبانيا مع أبى ـ بعد وفاة أبى

بقليل ـ لم تستغرق أكثر من شهر ، ورحلة أخرى إلى ألمانيا لستة أسابيع ، ورحلا ت أخرى ، كانت كلها رحلات دراسية . لم يكن أبى يتسلى قط أثناء أبحاثه البالغة التعقيد ، أما أنا ففى الوقت الذى لا أتبعه كنت أقرأ . ومع ذلك فبمجرد أن غادرنا مارسيليا هلت علىَّ ذكريات عن غرناطة ، ومن وسط ظلال أكثر وضوحاً ، وأعياد ، وضحكات ، وغناء ، ورحت أفكر : تُرى هل هذا هو ما سوف ألقاه ؟ صعدت فوق مقدمة السفينة رحت أتطلع إلى مارسيليا وهى تبتعد .

فجأة ، أحسست أننى أهملت « مارسلين » قليلاً .

كانت جالسة فى المقدمة ، اقتربت منها ، ولأول مرة نظرت إليها حقيقة .

كانت مارسلين جميلة كما تعرفون ، وقد رأيتموها ، لاحظت أننى لم أرقبها من قبل مع أنى أعرفها تماماً ، هـأنذا أراها من جديد ، فقد ارتبطت أسرتانا معاً فترة طويلة ، ورأيتها تكبر ، وتعودت على لطفها ، ولأول مرة اندهشت ، فهذه اللطيفة قد أصبحت بالغة .

تركت خماراً طويلاً ينسل تحت قبعة بسيطة من القش الأسود . كانت شقراء ، ولكنها لا تبدو رقيقة ، بدت تنورتها ومشدها وكأنهما مصنوعان من شال اسكتلندى اخترناه معاً . لم أود أن تنغمس معى فى أحزان عزائى .

أحست أننى أنظر إليها ، استدارت نحوى ، لم أكن قريباً منها حتى تلك اللحظة إلا فى النزر اليسير . وبدلاً من الحب تملكتنى مشاعر باردة وأنا أراها وددت إن أزعجها قليلاً ، هل أحست مارسلين فى هذه اللحظة أننى أنظر إليها لأول مرة بطريقة مختلفة ؟ بدورها دققت فىَّ ، ثم ابتسمت لى برقة بدون أن تتكلم ، جلستُ على مقربة منها ، لقد عشت حياتى من أجلى ،

أو على الأقل حتى تلك اللحظة ، فقد تزوجت دون أن أتخيل زوجتى شيئاً آخر غير أن تكون صديقة ، أو أفكر أن ارتباطنا يمكن أن يغير حياتى ، وفهمت لتوى أن هذا ليس سوى حديث داخلى مع نفسى .

كنا وحدنا فوق سطح السفينة . مالت بجبهتها نحوى ، وجذبتُها برقة إلىّ . رفعت عينيها ، وقبلتُ أهدابها ، وأحسست فجأة ، على إثْر قبلتى بنوع من الشفقة ، غمرتنى بشدة لدرجة جعلتنى لا أسيطر على دموعى .

سألتنى مارسلين : ماذا بك ؟

بدأنا فى الكلام ، سحرتنى جُملها الساحرة ، تصرفت على قدر استطاعتى، وتكلمت عن بعض الأفكار حول حماقات النساء ، وقد أحسست فى تلك الأمسية أننى أنا الساذج والأحمق .

إنها الوحيدة التى ربطت حياتها الخاصة بحياتى الحقيقية ! أيقظتنى هذه الفكرة مرات عديدة فى هذه الليلة ، ولمرات كثيرة تمددت فوق فراشى لأرى السرير الآخر ، الأكثر انخفاضاً ، الذى تنام عليه زوجتى مارسلين .

فى اليوم التالى ، بدت السماء رائعة ، وبدا البحر هادئاً على مقربة منا ، وقاربت ما بيننا بعض الأحاديث السريعة ، وبدأ الزواج الحقيقى . وأبحرنا فى صباح اليوم الأخير من أكتوبر إلى تونس .

كان فى نيتى أن أبقى هناك بضعة أيام ، ويهمنى أن أبوح لكم ببعض غبائى ، فلم يجذبنى فى هذا البلد الجديد سوى « قرطاج » وبعض الأطلال الرومانية ، مثل « تيمجاد » التى حدثنا عنها أوكتاف ، وفن الموزاييك فى مدينة سوسة ، وخاصة مسرح « الجُم » الدائرى ، الذى ظللت أجرى فيه

لتوى . كان يجب أن أصل إلى سوسة ، ثم أقلتنا سيارة البريد من سوسة . كنت أود ألاَّ يشغلنى شئٌ هناك .

وبرغم هذا فإن « تونس » فاجأتنى بشدة ، ولمست فىَّ أحاسيس جديدة حركت مشاعرى . أشياء كانت نائمة لم يسبق لى أن مارستها ، وحفظت فى داخلى كل أسرارها الشابَّة . كنت أكثر دهشة كشخص يبحث عن التسلية ، وما أثار إعجابى حقًّا هو فرحة مارسلين .

فى صباح كل يوم كان المرض يشتد علىّ ، ووجدت أنه من العار أن أمتثل له . رحت أسعل ، وأحس بتعب غريب فى صدرى ، فاتجهنا جنوباً ، معتقداً أن الحرارة قد تساعد على شفائى .

تركت عربة المسافرين المتجهة إلى « صفاقس » مدينة « سوسة » فى الساعة الثامنة مساء . ووصلت منطقة « الجم » فى الواحدة صباحاً ، واحتفظنا بنفس أماكننا ، توقعت أن أجد عربة مناسبة ، لكن على العكس ، كنا غير مستريحين فى إقامتنا ، إنه البرد ! فارتدى كل منا الملابس الخفيفة ، شالاً واحداً . وما إنْ خرجنا من سوسة ، ومن بطْن وديانها ، حتى بدأت الريح تهب . وراحت تعصف فوق الهضبة ، وتصرخ ، وتصفر ، وتدخل من كل فتحة فى البوابة ، لا شىء يمكن أن يمنعها . كنا قد وصلنا ، خاصة أنا ، إلى أقصى حالات الإنهاك من خلال هزات العَجَل . ومن السعال المرعب الذى راح يهزنى بقوة شديدة . يا لها من ليلة ! وعندما وصلنا إلى « الجم » لم نجد أى فندق . بل كان هناك نزل مرعب . ماذا نفعل؟ استأنفت العربة الرحيل . وبدت المدينة نائمة فى وسط الليل الدامس حيث تبدو الأطلال أشبه بهياكل ضخمة ، والكلاب تعوى .

اتجهنا إلى نزل لم يكن به سوى سريرين . راحت مارسلين ترتعد من البرد ، لكن ، على الأقل ، كنا قد أصبحنا بعيدين كثيراً عن الريح .

بدا النهار فى اليوم التالى نديًّـا ، فقد فوجئنا ـ أثناء خروجنا ـ برؤية السماء وقد تلبدت بالسحب ، وراحت الريح تهب، ولكنها كانت أخف من البارحة . لم تكن العربة تقلع إلا فى المساء . . كان يوماً مرعباً كما أخبرتكم . بدا لى المسرح الدائرى قبيحاً أسفل هذه السماء الغاضبة . ربما ساعدها تعبى فى أن تزيد من حدة تبرمى ؛ ولذا عدت فى منتصف النهار وأنا أدقق فى كل دقائق الحجارة . كانت مارسلين تقرأ كتاباً إنجليزيًّـا يمنحها بعض السعادة بعيداً عن صرير الريح . جلست على مقربة منها ، وقلت :

ـ يا له من يوم حزين ! ألا تشعرين بالتبرم ؟

ـ لا . كما ترى فإننى أقرأ .

ـ ماذا جئنا نفعل هنا ؟ على الأقل فأنت تحسين البرد .

ـ ليس كثيراً . وأنت ؟ فعلا ! أنت تبدو شاحباً .

ـ لا . . .

وفى الليل ، استعادت الريح قوتها . . ووصلت العربة أخيراً ، ورحلنا .

ما إنْ بدأت العجلات فى الاهتزاز ، حتى أحسست أننى أتحطم . ونامت مارسلين ، من شدة التعب على كتفى ، لكن سعالى أيقظها ، على ما أعتقد ، وبكل رقة ، أسندتها على جدار العربة ، وجاهدت ألا أسعل . لا . فقد بدأت أتَقَيَّـأ . ومن جديد فعلت ذلك دون أى جهد ، وعلى فترات منتظمة . كان إحساساً بالغ الغرابة ، رحت أعتاد عليه فى أول الأمر ، لكنه راح يبعث فىَّ الغم ، خامرنى إحساس مجهول أنه يتركز فى فمى . وأصبح

منديلى غير صالح للاستعمال ، فملأت راحة يدى . ترى هل أوقظ مارسلين ؟ . . لحسن الحظ فقد تذكرت الوشاح الكبير الذى تلفه حول حزامها . فسحبته برقة . وبدأت التقيؤات التى لم أستطع مقاومتها تتدافع بغزارة، وتخففت منها بغرابة . إنها نهاية « الإنفلونزا » على ما أعتقد . وفجأة أحسست نفسى خائر القوى ، وبدأ كل شىء يدور حولى ، اعتقدت أن شـرًّا سوف يلم بى ، ترى هل سوف أوقظها ؟ . . . آه . . . ! تماسكت بطفولتى البريئة ، بكل ما أكن من كراهية للضعف الإنسانى ، وأنا أتصور أننى فوق بحر من حديد ، وأن صوت عجلات العربة قد أصبح كصخب الأمواج . . وتوقفت عن التقيـؤ ، ثم غرقت فى نوم عميق .

وعندما خرجت منه كان الفجر قد ملأ السماء ، أما مارسلين فكانت لا تزال نائمة . تلامسنا . كان الوشاح الذى أمسكه شفافاً ، من النوع الذى لا يظهر فيه شىء ، ولكن عندما أخرجت منديلى فوجئت أنه مملوء بالدم .

كان أول ما تبادر إلى ذهنى هو إخفاء الدم عن مارسلين . . . ولكن كيف ؟ بذلت كل ما بوسعى لكى أخفيه ، وخاصة فى يدى ، كأننى نزفت من أنفى ، لو سألتنى فسوف أقول لها إننى نزفت من أنفى .

ظلت مارسلين نائمة حتى وصلنا ، كان عليها أن تنزل أولاً ، ولم تلحظ شيئاً ، وجدنا غرفتين محجوزتين لنا . ألقيت نفسى فى حجرتى ، واغتسلت، وأخفيت الدماء ، ولم تر مارسلين شيئاً .

ومع هذا أحسست أننى بالغ الوهن ، وطلبت شاياً لاثنين ، وبينما كانت تعده بدت هادئة ، وشاحبة بعض الشىء ، إلا أنها لم تفقد ابتسامتها ، انتابنى إحساس بالضيق لأنها لم تلحظ شيئاً ، أحسست أننى ظالم ، وقلت

لنفسى : حقًّا ، إنها لم تر شيئاً مما أخفيته عنها ، لا يهم ، لكن الأمر تضاعف فى داخلى بشكل غريزى . . وفى النهاية اشتد الأمر علىّ ، ولم أتماسك طويلاً، قلت وقد أصابنى شرود :

ـ بصقت دماً هذه الليلة .

لم تصرخ ، بل بدت شاحبة للغاية . ترنحت وأرادت أن تتماسك، ثم سقطت بثقلها فوق الأرض .

أسرعت نحوها وقد أصابتنى صرعة : « مارسلين » ! « مارسلين » ! هيا! ماذا فعلت ؟ ألا يكفى أن أكون مريضاً ؟ ولكننى كنت بالغ الوهن ، ألا يجب أن أصاب بألم بدورى ؟ فتحت الباب ، ورحت أنادى وأنا أهرول .

أذكر أننى وجدت فى حقيبتى رسالة توصية من ضابط المدينة ، استخدمت هذه الرسالة كى أبحث عن طبيب .

كانت مارسلين فى تلك الآونة قد استردت عافيتها . . فهى جالسة الآن عند طرف سريرى الذى كنت أرتعد فيه من الحُمَّى . وصل الطبيب ، وراح يفحصنا ـ أنا ومارسلين ـ أكد أن مارسلين ليس بها شىء ، وأنها لم تحس بنفسها وهى تسقط ، أما أنا فقد زادت حالتى سوءاً ، لم يود أن يتكلم ، ووعد أن يعود قبل أن يحل المساء .

عاد ، وابتسم لى وهو يتكلم ، وأخذ يسدى العديد من النصائح الطبية. فهمت أنه يديننى ـ كما صرحت لكم ـ لم أرتجف، كنت مصاباً بالملل، وتركت نفسى بكل بساطة . . ترى من يهبنى الحياة ؟ لقد عملت بكل طاقتى كل ما يمليه علىَّ واجبى ، أما الباقى . . آه ! ماذا يهم ؟ فكرت وأنا أرى عقلانيتى جميلة بشكل كاف . راحت بشاعة المكان تسبب لى

المعاناة . فغرفة هذا الفندق بشعة ، حين أنظر إليها ، فكرت أن هناك غرفة مشابهة مجاورة لغرفة زوجتى مارسلين . سمعتها تتكلم ، لم يكن الطبيب قد غادر المكان ، كان يتحدث معها ، حاول أن يتكلم بصوت خفيض ، مر بعض الوقت ، وكان علىَّ أن أنام .

رأيت مارسلين عندما استيقظت ، أدركتُ أنها كانت تبكى ، لا أحب الحياة عندما أكون سبباً للشفقة ، لكن بشاعة هذا المكان تؤلمنى ، وخاصة عندما تستقر عيناى عليه .

إنها الآن قريبة منى تكتب ، بدت لى جميلة ، رأيتها تغلق رسائل عديدة ، ثم قامت واقتربت من سريرى ، وأمسكت يدى برقة وقالت :

ـ كيف حالك الآن ؟

ابتسمت وقلت بنبرة حزينة :

ـ ترى هل سَــأُشْفَى ؟

وعلى الفور ردت : سوف تبرأ .

أحسست بمشاعر مشوشة تجاه كل ما فى الدنيا كما أحسست بالحب تجاهها وتجاه الحياة المتموجة الجميلة ، والتى تبدو فى دموعها المتدفقة من عينيها لدرجة دفعتنى أن أبكى دون أن أجد القوة للدفاع عن نفسى .

وبكل حبها القوى دفعتنى أن أترك « سوسة » وهى تشملنى بكل عناية وحماية ورعاية وسهر . . ومن « سوسة » اتجهنا إلى « تونس » . ثم من «تونس» إلى « القسطنطينية » .

بدت مارسلين رائعة ، وكان علىَّ أن أتماثل للشفاء فى « بسكرة » . وبدت

ثقتها شديدة ، ولم يفتر حماسها لحظة ، كانت قد أعدت كل شىء ، وتدبر كل شىء ، تتأكد من المسكن والرحيل ، هذا الرحيل الذى يبدو أقل بشاعة، وتصورت مراراً أن على أتوقف ، كنت أتصبب عرقاً مثل شخص يحتضر، وكنت أختنق أحياناً . وفى نهاية اليوم الثالث وصلت إلى «بسكرة» وأنا أقرب إلى الموتى .

2

لماذا نتكلم عن الأيام الخوالى ؟ وماذا بقى منها ، فذكرياتها مثيرة للرعب . لم أعرف الكثير عمن أكون أنا ولا عن مكانى .

كنت أرى مارسلين فقط ، وأنا فوق السرير ، جالسة . أعرف ان عواطفها وعنايتها بى قد أنقذا حياتى . وأنا أشبه ببحار ضائع يتطلع إلى الأرض . كنت أحس بضوء الحياة ينبعث . واستطعت أن ابتسم لمارسلين .

لماذا أحكى كل هذا ؟ الآن الموت قد لمسنى ـ كما يقال ـ بجناحيه ، وأصبح من المدهش أن أكون على قيد الحياة ، وأصبح النهار بالنسبة لى ضوءاً غير ملهم ، ففيما قبل لم أكن أفهم معنى أن يكون المرء حيًّا ؛ لذا يجب أن أجعل من الحياة نبضاً دائماً .

لقد جاء اليوم الذى يمكننى أن أنهض فيه . امتثلت للشفاء فى بيتى ، الذى لم يكن تقريباً سوى شرفة ، ويا لها من شرفة ! تطل عليها غرفتى وغرفة مارسلين ، تلك الشرفة تبدو كأنها راقدة فوق السطح . وفى أعلى المنزل يستطيع المرء أن يتخيل ، ومن أعلى النخيل تطل الصحراء . وعلى الجانب الآخر من الشرفة تقع حديقة المدينة . لقد كسرت أفرع الحديقة التى تظللها ، إنها تمتد بطول الفناء ، فناء صغير مرتب ، مزروع فيه ست نخيلات ، ينتهى بسلم يربطه بالفناء . كانت غرفتى رحبة ، يدخلها الهواء، وحوائطها

بيضاء، غير معلق عليها شىء ، ويؤدى بابها الضيق إلى غرفة مارسلين ، أما الباب الكبير الزجاجى فيفتح على الشرفة .

هناك تتعاقب الأيام بلا ساعات . كم رأيت الأيام البطيئة التى مرت أثناء وحدتى ! وقد جلست مارسلين على مقربة منى تقرأ ، وتطرز ، وتكتب . أما أنا فلا أفعل شيئاً ، أنظر إلى الشمس ، وأتطلع إلى الظل ، وأرى الظل يحل مكان الضوء ، أفكر فيه قليلاً وأنا أرقبه . كنت لا زلت خائر القوى ، أتنفس بصعوبة ، كل شىء يؤلمنى ، حتى القراءة . . لماذا أقرأ ولدىَّ ما يشغلنى بما فيه الكفاية ؟ .

ذات صباح دخلت مارسلين وصاحت ضاحكة :

ـ جئت لك بصديق .

ورأيتها تدخل خلفها صبيًّا عربيًّا صغيراً ، أسمر البشرة ، كان يُدعى « بشير » ، تشع عيناه الواسعتان اللتان تنظران إلىَّ بالصمت ، أحسست بالامتنان ، هذا الامتنان الذى يتعبنى ، لم أقل شيئاً . وبدا الصبى غاضباً أمام برودة استقبالى ، استدار نحو مارسلين ، وبحركة حيوانية لطيفة وممازحة تكور أمامها ، وأمسك يدها ، وقبَّلها بحركة كشفت ذراعيها العاريتين . أحسست أنه لا يرتدى شيئاً تحت غندورته البيضاء وتحت برنسه[1] غير المكوىّ . قالت له مارسلين التى لاحظت اهتمامى :

ـ هيا ! اجلس ، اجعلْهُ يُسامرك .

---

(١) البُـرْنس : كل ثوب ملتصق به غطاء للرأس .

جلس الصغير أرضاً ، وأخرج سكيناً من برنسه ، وقطعة من البوص ، وراح يعمل ، إنه يود أن يصنع صفارة كما أتصور .

وبعد قليل ، لم يعد وجوده يضايقنى . رحت أنظر إليه وقد بدا أنه نسى وجوده معنا . كانت قدماه حافيتين ، راح يضم البوص بقبضتيه . أخذ يحرك سكينه بحركات تدعو إلى الدهشة . . ترى هل أهتم بهذا حقًّا؟ كان حليقاً على الطريقة العربية ، يضع على رأسه غطاءً صغيراً من القش . وعندما سقطت الغندورة ظهر كتفه الدقيق ، وددت أن أحادثه ، لكننى لم أفعل . استدار نحوى وابتسم ، أشرت له إشارة أن يعطينى الصفارة ، ثم أمسكتها وأبديت إعجابى الشديد بها ، إنه يود الآن أن يرحل، أعطته مارسلين كعكة ، أما أنا فمنحته قرشين .

وفى اليوم التالى ـ وللمرة الأولى ـ أحسست بالملل وأنا أنتظر . تُرى ماذا أنتظر ؟ أحسست بقلقٍ ، ثم تململت أخيراً :

ـ ألن يأتى « بشير » هذا الصباح ؟

ـ إذا أردته، فسوف أبحث عنه .

تركتنى ونزلت ، وبعد لحظة عادت وحدها ، ماذا أصابنى من مرض ؟ كنت حزيناً ، لقد تضايقتُ حين رأيتها تعود بدون بشير .

قالت لى :

ـ الوقت متأخر ، وقد غادر الصِّبْيَةُ المدرسة وتناثروا فى أماكن عديدة . . تعرف أنه جذاب ، وأعتقد الآن أن الجميع يعرفوننى .

ـ حاولى أن يأتى هنا غداً على الأقل .

وفى اليوم التالى جاء بشير ، وجلس مثلما فعل قبل البارحة ، أخرج سكينه وأراد أن يشذب قطعة خشب صلدة ، وراح يجاهد وهو يغرس فيها نصل السكين . انتابتنى رجفة من السعادة ، راح يضحك وهو يكشف السكين اللامع ويحس بالفرحة وهو يراها تسيل دمه . كشف عن أسنانه البيضاء وهو يضحك ، وترك جرحه . بدا لسانه ورديًّـا كأنه لسان قط . آه! كم يبدو رائعاً ! إنه يمتلك أشياء أفتقدها ، كالصحة ، فقد بدت صحة هذا الجسم الصغير على ما يرام .

وفى اليوم التالى جاء ببعض البِلْى ، وأراد أن يلاعبنى . لم تكن مارسلين هناك ، ترددتُ وأنا أنظر إلى بشير . أمسك الصغير ذراعى ، ووضع البلى بين يدى ، ودعكها . عانيت كثيراً وأنا أنحنى ، حاولت أن ألعب نفس اللعبة ، لكننى لم أستطع الاستمرار ، كنت بالغ التعب ، ألقيت البلى وسقطتُ فى مقعدى ، ارتبك بشير ، وراح ينظر إلىَّ ، وقال بطريقته اللطيفة :

ـ هل أنت مريض ؟

كانت رنة صوته حزينة . . وعندما عادت مارسلين قلت لها :

ـ خذيه ، فأنا تَعِبٌ هذا الصباح .

وبعد بضعة أيام من بصقى للدم رحت أمشى بصعوبة فى الشرفة . كانت مارسلين مشغولة بحجرتها ، ولحسن الحظ فإنها لم تر شيئاً ، أخذت ألهث بشدة ، وفجأة امتلأ فمى كله . . إنه ليس دماً نقيًّـا مثل ما فى البصقات السابقة . . إنه كُتَـلٌ ضخمة مرعبة ، بصقتها فوق الأرض بكل ازدراء .

مشيت بضع خطوات مترنحاً ، وقد امتلأت بالتأثر ، ارتجفت ، فقد

استبد بى الخوف ، كنت غاضباً ، تصورت حتى هذه اللحظة أن الشفاء سيحل بى ، وأنه ليس علىَّ سوى انتظاره . حدث هذا الأمر كى يردنى القهقرى ، شيء غريب ! البصقات الأولى لم تترك أثراً فىَّ ، أتذكر الآن أنها جعلتنى هادئاً ، فترى من أين يجيء خوفى ورعبى؟ هل يجيء فى نفس اللحظة التى بدأت فيها أحب الحياة ؟ .

عدت إلى الوراء ، وانحنيتُ متطلعاً إلى بصاقى ، أمسكت قشة ، ورفعت الكتلة الدموية ، ووضعتها فى منديلى ونظرت إليها . إنها دم أسود ، كتلة جلاتينية مرعبة ، فكرت فى دماء بشير النقية ، وفجأة انتابتنى رغبة ، وأمنية مثيرة للرعب أكثر مما أحسست طيلة حياتى حتى الآن : أريد أن أعيش ، أن أعيش ، أن أعيش ! زممت أسنانى ، ورحت أطلق بقبضتى بكل قوة نحو الفراغ .

بالأمس جاءتنى رسالة من ت . . ثم رحت أرد على سؤال قلق من مارسلين ، كانت مفعمة بالنصائح الطبية إلى « ف . ت » . . بخطابه بعضُ الأوراق الطبية وكتاب متخصص ، بدا لى أكثر جدية . قرأتُ الرسالة بلا مبالاة وكأننى أكاد أن أطبعها ، تقاربت هذه الأوراق مع كل المعنويات التى لصقت بى منذ طفولتى . فها هى ذى نصائح تفيدنى . لم أفكر فى أن هذه «النصائح الدرنية » و « علاج الدرن الفعال » يمكن أن تنطبق على حالتى ، لم أظن نفسى مصاباً بالدرن ، بل أرجعت أعراضى الأولية إلى أسباب عديدة ، أو بمعنى أصح لم أرجعها إلى شيء ، تجنبت التفكير فيها ، وحكمت على نفسى أننى قد شُفيت ، أو شيء كهذا تقريباً ، قرأت الكتاب ، وتصفحت أوراقه ، وتعاملت معها فجأة بأسلوب مخيف ، خُيِّلَ لى أننى لم أعتنِ بنفسى بما فيه الكفاية ، لقد تركت نفسى أحيا حتى تلك

اللحظة ، وتعلقت بأمل قوى ، فجأة بدت لى حياتى كأنها معرضة للهجوم، هجوم تحت الحزام ، هناك عدو متعدد القوى ، ملىء بالحيوية ، ويعيش معى ، أسمعه وأراقبه . وأحس به ، لم أهزمه بدون مقاومة ، أضفت بصوت خفيض حتى أحاول أن أقنع نفسى :

ـ إنها مسألة إرادة .

ووضعت نفسى فى حالة عدوانية .

وعندما حل الليل رتبت أمورى ، ولبعض الوقت ، كان شفائى حالة من التمحص ، وكان همى صحتى ، ويجب أن أكون فى حال أفضل ، وكل ما يهمنى أن أكون « بخير » ، وأن أنسى ، وأن أدفع عنى كل ما يثيرنى ؛ ولذا فقبل أن أتناول وجبة المساء رحت أقوم بتمرينات تنفسية وغذائية ، وأضع حلولاً للأمور .

تناولنا طعامنا فى كشك صغير تحوطه الشرفة من كل الأنحاء ، جلسنا هادئين ، بعيدين عن كل شىء مثير ، وكانت المحبة التى تجمع مائدتنا رائعة ، حَمَل إلينا زنجى عجوز من فندق مجاور الطعام المناسب ، دققت مارسلين فى قائمة الطعام ، وأوصت على طبق ، وتجاوزت بقية الأطباق . . لم أحس بجوع شديد ، ولم أفتقد الأطباق الناقصة ، ولا قائمة الطعام غير الكافية . لم تعتد مارسلين على تناول الكثير من الطعام ، ولا تعرف كيف تأخذ فى حسبانها أننى لا آكل ما يكفينى ، فالأهم هو أن آكل كثيراً ، وبأى طريقة . وأدَّعى أننى لم أنفذ ذلك فى تلك الأمسية ؛ لأننى لم أقدر . كان أمامنا طبق من الأسماك الخليطة ، ومشويات تمت تسويتها جيداً .

بدا سخطى شديداً ، أكثر مما بدا على مارسلين ، رحت أنثر أمامها

كلمات انفعالية ، وأنا أتهمها ، بدت كأنها تسمعنى ، وأنها تحس بالمسئولية عن رداءة هذه الوجبات ، وأن هذا التأخير البسيط للنظام الذى اتبعته أصبح ذا خطورة وأهمية ، نسيت الأيام الخوالى ، فقد أفسدت هذه الوجبة الناقصة كل شىء ، وتحجرت ، وكان على مارسلين أن تنزل إلى المدينة لتبحث عن علب مأكولات محفوظة ، مهما كان نوعها .

وفى المساء لم تعد الوجبات فى أفضل حالاتها ، برغم أنها أكثر عدداً . كانت هناك وجبة كل ثلاث ساعات ، الأولى فى السادسة والنصف ، وكان علينا أن نحتفظ بمعلبات من كل الأنواع ، وأن نطلب عينة من كل أطباق الفندق .

لم أستطع النوم هذا المساء ، انتابتنى مشاعر جديدة عن فضائلى الجديدة. أعتقد أن حمى أصابتنى ، كانت هناك زجاجات مياه معدنية ، شربتُ زجاجة ، وأعقبتُها بأخرى ، ثم الثالثة مرة واحدة . تغلبت على إرادتى ، وأمسكت عدوانيتى ، ووجهتها قبالتى ، كان علىَّ أن أناضل ضد كل شىء ، فصحتى تخصنى وحدى .

وأخيراً رأيت الليل مصابا بالشحوب ، ومن شحوبه يتولد النهار ، إنها صحوة قوتى .

كان اليوم التالى هو الأحد ، لم أكن قلقاً آنَ ذاكَ بشأن إيمان مارسلين ، أو اختلافاتها ، أو عفتها . بدا لى أن هذا ليس مسألة نقاش ؛ لذا لم أعلق بها أهمية ، ففى هذا اليوم توجهت مارسلين إلى القداس ، وعلمت عند عودتها أنها صَلَّت من أجلى . دققت النظر فيها ، ثم قلت بكل ما أملك من رقة :

ـ يجب ألاَّ تُصَلِّى من أجلى يا مارسلين .

قالت بشىء من الاضطراب :

ـ لمــاذا ؟

ـ لا أحب هذه الأمور .

ـ هل ترفض مساندة السماء ؟

ـ لا شك أننى أعترف بالجميل ، لكن هذا يسبب متاعب قد لا أريدها .

بَـدَوْنَا كأننا نمزح ، لكننا لم نتطرق إلى أهمية كلماتنا . تنهدت قائلة :

ـ لن تشفى وحدك يا صديقى المسكين .

ـ طبعـــــاً .

أضفتُ وأنا أرى حزنها بلهجـة أخف شدة :

ـ سـوف تسـاعدينني .

3

تكلمتُ مراراً عن جسدى ، وسوف أتكلم عنه كثيراً ، مما سيجعلكم تتصورون أننى قد نسيت جزءاً من روحى ، فإهمالى فى هذا النص شىء إرادى ، إنه هناك . لم يكن لدىَّ ما يكفى من القوة للدخول فى حياة مزدوجة ، أما الروح فسوف أتحكم فيها فيما بعد ، عندما أشفى .

كنت متعباً ، وبلا سبب كنت أتصبب عرقاً ، وبلا سبب تتملكنى رجفة البرد ، كنت مثلما قال روسو : « لاهث النفس » ، أحياناً أصاب بالقليل من الحُمى ، ودائماً تنتابنى ـ خاصة فى الصباح ـ مشاعر مرعبة ملولة ، وأبقى دائماً خائر القوى فى مقعدى ، نافراً من كل شىء ، أنانيًّا ، ومهموماً وأنا أتنفس بصعوبة . تنفست بضيق شديد ، وبكل صعوبة ، كان زفيرى يتصاعد إلى مرحلتين ، أما إرادتى فلا يمكن الإمساك بها تماماً ، ولقد ظللت فترة طويلة أحاول أن أتجنب ذلك بكل ما أملكه من قوى .

لكن الذى جعلنى أعانى أكثر هو أن درجة حرارة مشاعرى المرضية قد تغيرت كثيراً ، أفكر ، وأنا أتذكرها الآن ، إنها كانت حالة عصبية زادت من حدة المرض ، لم أستطع أن أفسر أن هذه السلسلة من الأعراض ليست سوى حالة درن بسيطة ؛ فقد كنت دائماً إما بالغ السخونة أو بالغ البرودة ، فأغطى جسمى بالمزيد من الأغطية ، ولا أتوقف عن الارتعاد ، وأتصبب

عرقاً ، ثم أنزع الغطاء قليلاً وأنا أرتجف من عدم القدرة على التنفس ، تتجمد أجزاء من جسدى وتصبح باردة ـ برغم العرق ـ فى ملمسها وكأنها الرخام ، لا شىء يمكنه أن يدفئها . كنت حساساً للبرد لدرجة أن نقطة من الماء لو سقطت فوق قدمى وأنا فى الحمام فإنها تصيبنى بنزلة شعبية ، وحساسا أيضاً للحرارة بنفس الدرجة ، واحتفظت بهذه الحساسية ، وظللت على هذا المنوال ، طوال اليوم كان الأمر مثيرا للمتعة ، فكل حساسية حية، تبعاً للعضو عندما يكون قويًّـا أو ضعيفاً ، تصبح على ما أعتقد سبباً للذة أو الحرمان ، فكل ما يسبب لى القلق أصبح بسبب اللذة .

لم أكـن أعرف كيف يمكن أن أنـام والنوافـذ مغلقة ، تبعـاً لنصيحـة «ف . . .» حاولت أن أفتحها . . فى المساء قليلاً فى البداية ، ثم دفعتها على مصراعيها ، لعل هذا سيصبح عادة ، لكن ما إن تنغلق النوافذ حتى أختنق ، ومع بعض اللذة أحسست فيها بعد أنى أدخل إلى نسيم الليل ونور القمر .

حدث أن انتهت هذه الثأثآت الصحية الأولى بفضل تلك العناية الشديدة، وذلك الجو النقى ، وبنظام غذائى أفضل ، وسرعان ما تحسنت . وحتى تلك الآونة كنت أخشى لهاث السلم ، ولم أجرؤ على ترك الشرفة فى الأيام الأخيرة من يناير ، ثم أخيراً غامرت بالنزول إلى الحديقة .

اصطحبتنى مارسلين ، وهى تضع شالاً على كتفها . كانت الساعة الثالثة مساء ، والرياح تهب شديدة فى هذا البلد ، مما ضايقنى طوال ثلاثة أيام ، لكن نسمة الهواء كانت بديعة .

إنها حديقة عامة يقطعها ممر واسع ، ويظلله صفان من النخيل العالى

الذى يسمونه بالخزائن ، وفى ظل هذه الأشجار توجد مقاعد وقناة نهرية صغيرة ، أعنى أن عمقها أكبر من اتساعها ، على مقربة من اليمين الممر الطويل ، ثم هناك قنوات أخرى أقصر تقسم مياه النهر ، وتصبها عبر الحديقة نحو النباتات ، والمياه الراكدة بلون الأرض ، لون الصلصال الوردى أو الرمادى . . لا يوجد غرباء . . هناك بعض العرب يتنزهون ، الذين ما إنْ يتركوا المكان حتى تكتسى معاطفهم بلون الظل .

تملكتنى رعشة غريبة عندما دخلت منطقة الظل ، تلفعت بالشال ، لم أحس بأى ألم ، بل على العكس ، جلسنا فوق أريكة ، التزمت مارسلين الصمت . مرَّ بعض العرب ، تتبعتهم مجموعة من الأطفال ، كانت مارسلين تعرف الكثيرين منهم ، وراحت تحييهم ، فاقتربوا منها ، أبلغتنى بأسمائهم ، ودارت بينهم أسئلة وإجابات ، وابتسامات وتجهمات ، وألعاب صغيرة ، كل هذا حركنى قليلاً ، إلا أننى أحسست مرة أخرى بالضيق ، وتصبب العرق فى بدنى ، سألت نفسى : تُرى فِيمَ يعنينى هذا ؟ إنهم ليسوا سوى أطفال ، وهى أيضاً ، نعم إنها تتصرف هكذا ، ضايقنى وجودها ، فلو قمتُ من مكانى راحت تتبعنى ، وإذا نزعتُ الشال عنى تجعلنى ألبسه ، وإذا خلعته بعد ذلك تقول : « ألستَ مصاباً بالبرد ؟ » . ثم تتكلم إلى الأطفال ، لم أجرؤ أن أكلمهم ، أحسست أنها تحميهم رغماً عنى ؛ ولذا أحسست أن علينا أن نرحل . قلت لها : « هيا بنا إلى المنزل » . وقررت أننى لو عدت إلى الحديقة مرة أخرى فسأفعل ذلك وحدى .

فى اليوم التالى خرجت فى نحو العاشرة صباحاً ، وسرعان ما انتهزت الفرصة ، جاء بشير يرفع شالى ، وهو الذى لم يعد يأتى إلا قليلاً ، أحسست أننى خفيف الحركة ، وأن قلبى يطير فى الهواء ، كنا تقريباً فى

الممشى ، أسير ببطء ، أجلس لحظة ، وأعاود المشى . . يتبعنى بشير . وصلت إلى ناحية النهر ، حيث تقوم الغسالات بالغسيل ، ووسط التيار هناك حجر مسطح نامت فوقه فتاة صغيرة ، وقد مالت بوجهها نحو المياه ، وغمست يدها فى التيار ، لعلها سقطت فيها ، أو وضعتها عن طيب خاطر، وقد لمست قدماها الحافيتان المياه ، إنها تود أن تبلل نفسها من هذا الحمام، ويبدو جلدها كأنه محفور . اقترب منها بشير وراح يكلمها ، استدارت وابتسمت لى ، وردت على بشير باللغة العربية . قال لى : إنها أختى . ثم أخبرنى أن أمه ذهبت للغسيل وأن أختة الصغيرة تنتظرها ، وأن اسمها « خضراء » . قال كل هذا بصوت رخيم وواضح ، وطفولى المشاعر، ثم أضاف :

ـ إنها تطلب أن تمنحها قرشين .

أعطيته عشرة ، وبينما أستعد للرحيل وصلت الأم ، الغسالة ، بدت امرأة رائعة ، بدينة ، وعلى جبهتها وشم كبير أزرق ، ترتدى قلنسوة من الكتان فوق رأسها تبدو أشبه بحاملات القرابين القديمات، وقد تحجبت قليلاً بقماش أزرق غامق حوله حزام يتدلى حتى قدميها . ما إن رأت بشيراً حتى أشارت له متجهمة ، وردَّ بعنف ، وتدخلت الفتاة الصغيرة . دار بين الثلاثة نقاش ملىء بالحيوية ، ثم راح بشير أخيراً يفهمنى أن أمه فى حاجة إليه هذا الصباح . مد لى يده بالشال وقد ارتسم عليه ضيق ؛ لذا كان علىَّ أن أستكمل مشوارى وحدى .

لم أتحرك سوى عشرين خطوة ، وبدا الشال ثقيلاً لا يُحتمل ، ٣٣، تصببت عرقاً وجلست فوق أول مقعد قابلنى ، وتمنيت لو ظهر صبىٌّ يخفف

عنى هذا الحمل ، وكان أول طفل ظهر فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، أسود كأنه سودانى ، وبدون خجل قدمت نفسى له ، اسمه عاشور ، بدا لى جميلاً رغم أنه أعور ، يحب الحديث ، أخبرنى أنه قادم من ناحية النهر ، وأنه بعد الحديقة العامة توجد واحة يخترقها النهر ، نسيت تعبى وأنا أسمعه، أكثر خفة مما بدا لى بشير ، اقترب منى أكثر ، وبدوتُ سعيداً لأن الأشياء تغيرت، وعَدْتُه أن أنزل مرة أخرى إلى الحديقة وحدى وأن أنتظره ، أن أجلس فوق مقعدى ، وأنتظر أن تحين مصادفة لمقابلته .

بعد أن توقفت مرات عديدة وصلنا أنا وعاشور أمام بابى ، وددت أن أدعوه للصعود مرة ، لكننى لم أجرؤ ، فأنا لا أعرف ماذا ستقول مارسلين .

وجدتها فى صالة الطعام جالسة على مقربة من طفل صغير هزيل ، يبدو نحيفاً ، لم أشعر نحوه فى البداية إلا بالاستياء أكثر من الشعور بالشفقة ، وبكل حياء ، قالت مارسلين :

ـ مسكين هذا الصغير فهو مريض .

ـ أتمنى ألاَّ يكون مرضه معدياً . . ماذا به ؟

ـ لا أعرف بالضبط ، إنه يشكو من كل شىء ، ويتكلم الفرنسية بصعوبة . عندما سيكون بشير هنا غداً سنطلب منه تفسيراً لما فعله . . وسأجعله يتناول الشاى .

وكنوع من الاعتذار ـ ولأننى جلست بعيداً بدون أن أتكلم ـ أضافت :

ـ إننى أعرفه منذ وقت طويل ، ولم أجرؤ أن أجعله يأتى ، أخشى أن يُسبب لك تعباً ، أو لا يروق لك .

قلت : لماذا ؟ أحضرى كل الأطفال كما تريدين ، فهم يبعثون على التسلية .

وفكرت أننى لم أتصرف بشكل جيد عندما لم أجعل عاشوراً يصعد .

نظرت إلى زوجتى ، تبدو أُمًّا حنونًا ، مداعبة ، بدت رقتها مؤثرة نحو الصغير، حدثتها عن نزهتى ، ورحت أفهم مارسلين بكل رقة سبب خروجى وحدى .

اعتدت أن تكون ليالىّ مليئة بالأزمات التى توقظنى وقد تثلج جسدى أو تصبب عرقاً ، كانت هذه الليلة رائعة ، وتقريباً بلا أزمات ؛ لذا ففى صباح اليوم التالى استعددت للخروج فى الساعة التاسعة ، كان الجو جميلاً، وأحسست بأننى فى حال أفضل ، وأننى أقل ضعفاً ، وسعيداً ، وأننى أنشد التسلية . بدا الجو هادئاً ودافئاً ، ومع ذلك أخذت الشال بدافع الاحتياط ، ربما ليكون حجة للتعرف على شخص يحمله عنى . قلت إن الحديقة تكاد تمس شُرفتنا ، وسرعان ما دخلت فى ظلها . بدا الجو صحواً ، واكتست أشجار السنط بالأزهار قبل أن تكسوها الأوراق ، فبعثت فى المكان رائحة مجهولة، تثير البهجة فى داخلى . تنفست بكل ارتياح ، وبدت خطواتى أكثر خفة ، ومع ذلك جلست فوق أول مقعد أكثر نشوة من الأمس ، رحت أنظر حولى ، بدا الظل مناسباً وخفيفاً وهو ينبسط فوق سطح الأرض ، وبدا كأنه محفور هناك، آه أيها الضوء ! إننى أسمعك . تُرى ماذا أسمع ؟ لا شىء ، بل كل شىء ، رحت أتسلى بسماع الأصوات البعدة ، وأتذكر الشجيرات التى تبدو جذوعها من بعيد أشبه بكائنات غريبة علىَّ أن أقوم كى ألمسها ، مسستها وكأنى أداعبها ، وجدتها رائعة ، وتساءلت : ترى هل ولدت من جديد هذا الصباح ؟

نسيت أننى وحدى ، لم أنتظر شيئاً ، نسيت الزمن ، بدا لى أننى أحس أكثر مما أفكر ، وأننى مندهش لهذه النتيجة ، فعلى إحساسى أن يكون أقوى من فكرى .

ها هى ذى آلاف الأضواء تتولد ، وتتناثر آلاف الأحاسيس ، وها هى ذى أحاسيسى تسمح لى بالتوقد ، وتكمن فيها قصة الماضى بأكمله ، تعيش فيه ، تحيا ! لم تكف قط عن العيش ، وتكشف نفسها عبر سنوات دراستى ، حياة كامنة ومشرقة لا مثيل لها .

لم أقابل أحداً طيلة هذا اليوم ، وفكرت فى الراحة ؛ لذا أخرجت من جيبى كتاب « هوميروس » الصغير ، الذى لم أفتحه منذ رحيلى إلى مارسيليا ، وقرأت ثلاث عبارات من « الروسية » ، وجدت فيها مادة كافية لراحتى ، ثم طويت الكتاب ، أصابتنى رعشة جسدية أكثر حيوية مما كنت أظن ؛ ولذا رحت أبعد عنى الخمول الذى كان يُسبب لى السعادة فيها قبل .

4

فى تلك الآونة لاحَظْتُ مارسلين، وهى سعيدة ، إن صحتى قد رُدَّتْ إلَيَّ، وبدأت لبضعة أيام تحدثنى عن بساتين الواحة الرائعة . إنها تحب الهواء الجميل والمشى ، أما الحرية التى افتقَدَتْهَا فِي مرضى فقد سمحتُ لها بممارستها طويلاً كما تشاء ، وحتى تلك الآونة لم نكن نتكلم كثيراً ، ولم تجرؤ أن تحثنى على أن أتبعها ، وكم خشيت أن ترانى مغموساً فى حزنى وأننى غير قادر على التمتع بوقتى ، ولكننى الآن أصبحت فى حال أفضل ، اعتمدت على جاذبيتها كى تجعلنى أمتثل ، وسرعان ما أحسست بحلاوة المشى والتطلع حولى ؛ لذا فبداية من اليوم التالى خرجنا معاً للنزهة .

سبقتنى فى طريق غريب ، لم أر مثله فى أى بلد آخر ، يدور بين جدارين مرتفعين عن الأرض ، وقد اتخذ شكل الحدائق التى راحت تحددها الجدران . ينحنى الطريق ، ثم ينكسر ، وعند بداية المدخل توجد انحناءة تجعلك تشعر بأنك تائه ، ولا تعرف من أين ولا إلى أين الطريق ، أما المياه فتبدو قادمة من النهر وتتبع المجرى بطول الجدران التى تصنع الطريق من الأرض ، إنها الواحة الداخلية ، أما الصلصال الوردى أو الرمادى الرقيق فإن المياه تجعله أكثر ليونة ، فى حين أن الشمس الحارة تسبب الإزعاج وتنشر الحرارة ، لكنها لا تلبث أن تسترخى عند قطرات المطر الأولى ، وتصنع عندئذٍ أرضاً

هشة تغوص فيها الأقدام الحافية . عند اقترابنا طارت العصافير، فراحت مارسلين تنظر نحوى وقد انتابتها نشوة عارمة .

نسيتُ تعبى وضيقى ، وسرتُ صامِتاً وأنا أشعر بالمتعة والخفة والانشراح . فى هذه اللحظات كان اللهاث خفيفاً . وراح النخيل يهتز . رأيت النخيل العالى ينحنى ، ثم ساد الجو سكون ، سمعتُ صوتَ ناى قادماً من خلف الحائط ، رُحنَا نتتبعه ، ودخلنا من فتحة وراء الحائط .

إنه مكان ظليل ملىء بالضوء والهدوء ، يبدو لى كمأوى يهرب إليه المرء من الزمن ، ملىء بالصمت والأنين ، وتسمع فيه أصوات المياه المنسابة التى تروى النخيل ، وتنساب من شجرة لشجرة ، وتنادى طيور « الترغلة » بلغة خاصة تتغنى على أنغام ناى ينفخ فيه طفل صغير ، إنه حارس لقطيع من الماعز ، كان جالساً فوق جذع نخلة مكسورة ، لم ينزعج لظهورنا ، ولم يهرب، ولم يتوقف عن العزف إلاَّ للحظة .

لاحظت أثناء الصمت القصير أن ناياً آخر يرد عليه ، تقدمنا قليلاً ، ثم قالت مارسلين :

ـ ليس مهماً أن نذهب أبعد من ذلك ، فهذه الخضرة تتشابك معاً عند أطراف الواحة ، ترى هل ستصبح أكثر اتساعاً ؟

وافترشت الشال أرضاً وقالت :

ـ استرخ .

لا أعرف كم من الوقت بقينا ، ولا كم ساعة ؟ كانت مارسلين قريبة منى، فتمددت . ووضعت رأسى فوق ركبتيها ، وانطلقَ عزفُ الناى ، يتوقف لحظات ثم يعاود الانطلاق ثانية متلاحماً مع خرير المياه . . أحياناً

تزعق إحدى الماعز ، فأغلق عينى ، وأحس بيد مارسلين المنعشة فوق جبهتى ، وأحس بالشمس الحارة تتسلسل من بين النخيل ، فلا أفكر فى شىء ، فلماذا يفكر المرء وتملؤه أحاسيس بالدهشة ؟ .

وللحظات عادت الضجة من جديد ، ففتحت عينى ، إنها الرياح الخفيفة تهب من بين النخيل ، إنها لا تنزل إلينا ، ولا تحرك سوى النخيل العالى .

فى صباح اليوم التالى عدت إلى نفس الحديقة مع مارسلين ، وفى مساء نفس اليوم عدت إليها وحدى ، كان هناك راعى الماعز الذى يعزف على النـاى ، اقتـربت منـه وكلمتـه ، كان يُدعى « لطيفًا » ، وفى الثانيـة عشـرة من عمره. كان جميـلاً ، أخبـرنى باسم ماعزه ، وقـال : إن القنوات تسمى « ساقية » ، وإن المياه لا تجرى فيها دوماً ، فالمياه تجف أحياناً ، وتجعل النباتات مصابة بالعطش ، ثم ما تلبث أن تعود إليها ، وفى أسفل كل نخلة هناك حفرة صغيرة تلتقط المياه وتروى الشجرة ، إنه نظام إلـهى عبقرى . راح الطفل يتحدث عنه وكأنه يعزف ، وشرح لى أن السيطرة على المياه جاءت من فكرة وجود العطش الأكبر .

وفى اليوم التالى رأيت شقيق « لطيف » . كان أكبر منه سنًّا ، وأقل جمالاً، كان يدعى « هاشمى » .ومن خلال سلم خاص مصنوع فوق لحاء النخلات القديمة المقطوعة ، رأيته يتسلق النخلة ، ثم ينزل بسهولة ، ورأيت تحت معطفه الطائر ملابسه المذهبة . راح يأخذ لأعلى الشجرة ، التى لا حواف لها إناء من الطين كى يضعه فوق جروح النخيل ويستخرج منها عصارة أشبه بالنبيذ اللذيذ الذى يعجب كل العرب ، إنه عرق البلح .

تذوقته بدعوة من « هاشمى » ، لكن هذا الطعم « الماسخ » الحار واللاذع لم يعجبنى .

فى الأيام التالية رحت بعيداً ، ورأيتُ حدائقَ جديدة ، ومراعىَ أُخرى ، وبعض قطعان الماعز ، وكما قالت لى مارسلين ، فإن كل الحدائق متشابهة . ومع ذلك تبدو مختلفة .

كانت مارسلين تصحبنى هناك أحياناً ، ولكن غالباً ما إن تدخل الحدائق، حتى أتركها ، وأدعى أن التعب قد أصابنى ، وأننى أريد الجلوس، وعليها ألاَّ تنتظرنى ؛ لأنها فى حاجة إلى المشى أكثر ، ويجب ألا تُنهى نزهتها . أبقى قريباً من الصغار الذين تعرفت على العديد منهم ، فأتحدث معهم طويلاً ، وأتعلم ألعابهم ، وألقنهم ألعاباً أخرى أفقد فيها كل قروشى ، ويصحبنى بعضهم إلى مسافات بعيدة (كنت أطيل خطواتى كل يوم) وأمشى فى طريق جديد ، وأنا أرتدى معطفى وشالى ، وأحياناً الاثنين ، وقبل أن أتركهم أوزع عليهم قطع النقود فيروحون يتبعوننى أحياناً حتى باب منزلى ، وأحياناً يمرون من هناك .

راحت مارسلين ، من ناحيتها ، تأتى بالتلاميذ وتشجعهم على العمل ـ بعد الخروج من المدرسة ـ حيث يأتيها العقلاء منهم ، وأكثرهم رقة ، أما أنا فكنت أصحب معى آخرين وأجمعهم كى نلعب معاً ، نهتم دوماً بإعداد المشروبات والحلوى ، وفيما بعد كان البعض يأتى من تلقاء نفسه حتى وإن لم ندعه .

فى آخر شهر يناير تغير الجو فجأة ، وهبت رياح باردة ، وعلى الفور تأثرت صحتى ، وانكشف الفضاء الواسع الذى يفصل الواحة عن المدينة ،

ولم يصبح الجو بالنسبة لى منعشاً ، أصبح علىَّ أن أبتعد عن الحديقة العامة ، ثم راحت السماء تمطر مطراً جليديًّا قادمًا من كل الآفاق ، فمن الشمال هب الجليد الذى يغطى الجبال تماماً .

قضيتُ هذه الأيام الحزينة قريباً من المدفأة ، أناضل قَـدْر الأمكان ضد المرض الذى انتصر علىَّ فى هذا الجو الردىء . . أيام مريرة ، لم أستطع فيها أن أقرأ ولا أن أعمل ، كان أقل جهد يجعلنى شديد اللهاث ، أمَّا التأمل فكان ينهكنى ، وإذا لم أسهر على صحتى أشعر بالاختناق .

كان الأطفال طوال هذه الأيام الحزينة هم سلوتى الوحيدة ، ففى الأيام الممطرة اشتدت العلاقات الأسرية ، جاءوا يوماً وقد ابتلت ملابسهم ، وجلسوا حول النيران يصنعون دائرة ، ومر وقت طويل بدون أن يتكلموا ، وكُنت متعباً للغاية ، أعانى من شىء ما ، فلم أنظر إليهم ، كانت صحتهم الطيبة تُبْرِئُنى ، أما مارسلين فقد أخذت تقول إنهم ضعفاء ، ونحفاء ، وبالغو التعقل . شعرت بالغضب عليها وعليهم ، وددت أن أطردهم ؛ لأنهم كانوا يسببون لى الخوف .

ذات صباح اشتد غضبى على نفسى ، فمختار هو الوحيد الذى لم يضايقنى قط ، وكانت امرأتى تدافع عنه ، ربما لأنه أكثرهم جمالاً . . جلس معى فى غرفتى ، بدت نظرته ذكية ومليئة بالحزن ، وانتابنى فضول دفعنى لمراقبة حركاته ، كنتُ واقفاً على مقربة من النار ، وقد أسندت مرفقى فوق المدفأة أمام كتاب ، بدوت منهكاً ، لكننى أخذتُ أرقب حركات الطفل الذى يشعر بالبرد وأنا أوليه ظهرى . لم يعرف مختار أننى أرقبه وتصور أننى منهمك فى الكتاب ، رأيته يقترب من مائدةٍ حيث وضعت مارسلين

فوقها زوجاً من المقصات الصغيرة ، فالتقطهما خلسة ، ثم وضعهما بين ملابسه . خفق قلبى بشدة للحظة ، لا أعرف لماذا لم أحس فى داخلى نحوه بالغضب ، بل على العكس ، فإننى أؤكد أن الشعور الذى انتابنى كان شيئاً آخر غير الفرحة . لقد تركت لمختار الفرصة أن يسرقنى ، استدرتُ نحوه وتحدثت إليه كأنَّ شيئاً لم يكن ، لا شك أن مارسلين تحب هذا الغلام كثيراً ، لذلك لم أفعل شيئاً ، لعلِّى خائف أن أؤلمها ، عندما سأراها سوف أحدثها عن ضياع المقصين ، وأخبرها أننى لا أعرف شيئاً ، لكننى أجزم أنه منذ هذا اليوم أحسست أن مختاراً هو طفل « مختار » .

5

لم يكن مقدراً لإقامتنا فى « بسكرة » أن تستمر لفترة أطول ، فقد انتهت أمطار فبراير ، وانطلقت الحرارة بكل قوتها ، وبعد أيام عديدة عسيرة عشناها تحت زخات المطر ، صحوت فجأة ذات صباح وقد علتنى البهجة، ما إن استيقظتُ حتى جريت نحو الشرفة العليا ، وبدت السماء نقية بطول الأفق ، وتحت أشعة الشمس الحارة تصاعدت الأبخرة وانطلق الدخان فى جميع أركان الواحة ، سمعنا زمجرة بعيدة عن الوادى ، كان الجو نقيًّا وجميلاً، وأحسست أننى أفضل بكثير . وعندما جاءت مارسلين وددنا الخروج ، لكن الطين فى ذلك اليوم أعاقنا .

وبعد أيام من عودتنا إلى « كرمة نصيف » بدت جذوع الأشجار ثقيلة ومنداة وغارقة فى المياه . هذه الأرض الإفريقية التى لم أعرفها قط ، تغطس لأيام طويلة ، وها هى الأخرى تهب من الشتاء ثَمِلَةً من الماء ، وتنفجر من بين العصارات الجديدة ، وتضحك لقدوم ربيع قوى أحسست بعطره وكأنه يتعاظم فى داخلى . اصْطَحَبَنَا عاشور ومختار فى البداية ، سعدتُ لصداقتهما العابرة ، فهى لم تكلفنى سوى نصف فرنك يوميًّا ، ولكننى فيما بعد ، شعرت بالملل منهما . انتابنى الإحساس أننى أكثر ضعفاً وفى حاجة إلى صحة كصحتهم، لم أجد فى ألعابهم الدافع اللازم كى أكون مبتهجاً ،

عدت إلى مارسلين لاهثاً بأملى وبأحاسيسى ، غمرتها بهجة حلت مكان حزن رأيته يجثم عليها ، اعتذرت كطفل دائم الخطأ ، وأرجعت ذلك إلى ضعفى ومزاجى « الفالت » والغريب ، وأكدت أننى حتى الآن كنت بالغ التعب كى أحب ، ولكننى منذ الآن فصاعداً أحس أننى أنمو مع صحتى وحبى ، تكلمت بصدق ، كنت بلا شك ضعيفاً ، وأمامى شهر على الأقل كى أشتهى مارسلين .

ومع كل يوم ترتفع درجات الحرارة . لا شىء يربطنا بـ « بسكرة » سوى هذا السحر الذى يذكرنا على التو بقرارنا بالرحيل الذى تم اتخاذه ، وخلال ثلاث ساعات استعددنا ، وفى فجر اليوم التالى أقلع القطار .

أذكر الليلة الأخيرة ، كان القمر شبه مكتمل ، راحت أشعته الفضية تدخل من نافذتى الكبيرة المفتوحة إلى غرفتى ، كانت مارسلين نائمة ، أما أنا فرحت أفكر ، كنت متمدداً لا أستطيع النوم ، أحسست بحمى تلهبنى من السعادة أنه ليس هناك فى الدنيا سوى الحياة . . قمت مرتعداً وقد نضح وجهى ويداى بالعرق ، ثم دفعت الباب الزجاجى ، وخرجت .

كان الجو متأخراً ، لا ضجيج ، ولا همس ، يبدو الجو نائماً أيضاً ، أكاد أسمع صوت الكلاب يأتى من بعيد وكأنها ابن آوى ، كانت تنبح طيلة الليل . أمامى الحوش الصغير ، والأسوار الواطئة تحدث ظلالاً مائلة ، والنخلات كعادتها بلا أى لون ولا حياة تبدو ساكنة للأبد . . لكن أحياناً نجد فى النوم صخب الحياة : هنا لا يبدو شىء نائماً ، كل شىء يبدو ميتاً ، أحس بالخوف من هذا الهدوء الذى راح يغزونى فجأة من جديد كنوع من الاحتجاج . . والوحشة فى الصمت موحشة لدرجة تدفعنى للصراخ

كالحيوانات ، أمسكتُ يدى اليسرى بيدى اليمنى ، أردتُ أن أحملها إلى رأسى ، وفعلت ، لماذا ؟ كى أؤكد لنفسى أننى على قيد الحياة ، ووجدت هذا رائعاً ، لمست جبهتى ورموشى ، وامتلكتنى رعشة ، سوف يحل يوم جديد ، فكرت فى أن يوماً آخر سيأتى ، وكى أوفر لشفتى المياه التى تروى عطشى ، فيجب أن تكون لدى القوة الكافية ، عدت ، ولكننى لم أنم أيضاً، أردت أن أثبت نفسى هذه الليلة ، وأن أركز الذكرى فى فكرى، وأن أمسك بها ، وتحيرت فيما سأفعله ، أمسكت كتاباً من فوق مائدتى - الإنجيل - وتركته مفتوحاً ، واتجهت إلى نور القمر كى أتمكن من القراءة ، وقرأت كلمات السيد المسيح إلى بيير ، هذه الكلمات التى لا يمكن أن أنساها : « الآن ، حزم نفسك ، واذهب حيث تشاء ، ولكن عندما ستصبح عجوزاً ، امدد يديك . . امدد يديك » .

وفى فجر اليوم التالى رحلنا .

6

لن أتكلم عن كل مرحلة من السفر ، خاصة تلك التى لم تترك ذكرى مؤثرة، كانت صحتى أحياناً أفضل ، وأحياناً أسوأ ، تتأثر لتوها بالرياح الباردة ، وتقلقها ظلال السحب ، وترتبط حالتى العصبية بالمتاعب المتكررة، ولكن رئتىّ على الأقل قد شفيتا ، وأصبحت كل انتكاسة أقل طولاً ، وأقل حدة ، وعندما يكون هجومها شديداً ، يصبح جسدى مسلحاً ضدها .

توجهنا من تونس إلى مالطا ، ثم إلى سيراكوزه ، عدت إلى الأرض الكلاسيكية التى كنت أعرف لغتها وماضيها . منذ بداية ألمى عشت بلا امتحان وبلا قانون يجبرنى أن أعيش ببساطة ، مثلما يفعل الأطفال والحيوانات. أنشغل الآن أكثر بالألم ، وأصبحتْ حياتى أكيدة وواعية ، وبعد هذه المعاناة الطويلة ، أعتقد أننى قد ولدت من جديد ، وفصلتُ ماضىَّ عن حاضرى ، وجدت نفسى جديداً فى أرض مجهولة ، يمكن أيضاً أن أكون منهكاً ، فكل ما تعلمته هنا فاجأنى . إننى قد تغيرت تماماً .

عندما أردت ـ فى سيراكوزة وفيما بعد ـ أن أستكمل دراستى ، وأن أغوص مثل غابر الزمان فى امتحان الماضى ، اكتشفت أن شيئاً قد استُلب منى ، على الأقل فيما يتعلق بتغيير الذوق ، إنه شعور الحاضر الذى يأخذ بتلابيب

تاريخ الماضى ، الآن يبدو هذا السكون وهذه الظلال المزيفة النابتة فى أحواش «بسكرة» كسكون الموت ، قبل أن أعجب بهذا الثبات الذى قد يسمح بالتأمل الروحى، تبدو لى كل وقائع التاريخ أشبه بقطع قديمة فى متحف، أو نباتات فى مرعى ، يساعدنى جفافها الظاهر فى النسيان، ذات يوم، بأنها كانت غنية بالعصارة ، لقد عاشت تحت الشمس . . الآن إذا أردتُ أن أعجب بالتاريخ فيجب أن أتخيله على أنه حاضر ، يجب أن تحركنى الوقائع السياسية الكبرى أكثر من الأحاسيس التى يولدها فينا الشعراء، وبعض صانعى الأحداث . أعدت قراءة ثيوقراط ، وفكرت أن مراعيه الجميلة أشبه بتلك التى أحببتها فى بسكرة .

كان تنقيبى فى العلم يتيقظ كل يوم ويتراكم علىَّ ، ويثرى بهجتى ، لا أستطيع أن أرى مسرحاً إغريقيًّا ، ولا معبداً بدون أن يبدو لى تجريدى الشكل، وفى كل عيد قديم تجعلنى الأطلال الباقية فى مكانها أشعر بالحُزن لأنها ماتت، فأرتعد من الموت .

هربت إلى هذه الأطلال ، وفضلت آثار الماضى الجميلة على هذه الحدائق التى تسمى بـ « اللاتومى »، التى يبدو فيها الليمون ذا طعم حمضى أحلى من البرتقال . وتمتد سواحل « سينثيا » المذكورة فى أوراق البردى فى زرقة النهار ، والتى جعلت العاشق بروزبرن يبكى .

بلغت درجة اختفاء هذا العلم فى نفسى حدًّا صنعه كبريائى فى أول الأمر، هذه الدراسة التى اعتبرت بمثابة حياتى فى أول الأمر لم تَبْدُ لى أكثر من تقرير جاء من قبيل المصادفة ، ومتناسباً معى ، وبعد أن لمسنى جناح الموت فقد كل شىء هنا بريقه ، فى حين أصبحت أشياء أخرى أكثر أهمية ،

وهى لم تبد قط هامة ، ولم يعرف أحد أنها موجودة ، إنها كومة مكدسة فوق روحنا من كل المعارف ترزح كعبء ثقيل ، وفى نفس المكان نرى الجسم عارياً ، والوجود الحقيقى مختفياً .

فقد أكتشفُ هذه الأمور التى أزعمها ، أعنى الوجود الحقيقى للإنسان القديم الذى لم يكن سبق الإنجيل ، من كتب الأجداد ، والآباء . فى البداية حاولت أن أختصرها ، بدت لى آن ذاك ـ بسبب الأعباء ـ أكثر إحباطاً وصعبة الاكتشاف ، وذات قيمة ، منذ ذلك الحين احتقرت وجودى الهامشى ، وعلمت أن المصير مكتوب فى السماء ، وأننا يجب أن نهز هذه الأثقال عنا .

بدأت أقارن نفسى بالأوراق الممسوحة ، وتذوقت فرحة العالِم الذى يكتشف فى الكتابات المعاصرة كل ما كان مكتوباً فى الماضى من نص قديم جدًّا أكثر ثراء . تُرى ماذا كان فى هذا النص الخفى ؟ هل يجب أن نمحو النصوص الحاضرة حين يجب أن نقرأه ؟

وبرغم ذلك فلم أكن أكثر هزالاً ومهارة عمّا كانت عليه معنوياتى فيما قبل ، بل مليئا بكل الصلابة والعناد اللازمين . هناك فى هذا المكان ما هو أكثر من النقاهة ، هناك ارتقاء وانتكاس للحياة ، وتدفق الدم الثرى والأكثر سخونة ، والذى عليه أن يلمس أفكارى ، يلمسها الواحدة وراء الأخرى ، وأن يتغلغل فى كل شىء ، ويثير المشاعر ، ويصبغ أكثرها بُعْداً عنا ، وأكثرها حساسية وسرية لوجودنا ؛ لأننا نمارسها ضعفاء أم أقوياء ، ونكوّنها حسب القوى التى تشكلها . إذن فَلْتَنْمُ ولتتضخم قوتها . كل هذه الأفكار لم أمتلكها بعد ، وتبدو هنا زائفة ، فعلاً ، فأنا لا أفكر فى شىء ، ولا أدقق

فى شىء . فكم أخشى ألاَّ تزعج نظرة خاطفة للغاية كل ما ينتابنى من تحوُّل بطىء . علينا أن نترك الزمن بكل سماته المموهة أن يُعاود الظهور . وألاَّ نحاول تشكيله ، وأن أترك مخى جانباً ـ ليس بدافع الإهمال ـ ولكن فوق أرض الراحة الأبدية ، تركت نفسى بشكل غريزى لأشياء بدت لى قدرية . لقد تركنا سيراكوزة ، ورُحْتُ أجرى فوق الطريق الوعر الذى يربط «تاورمين» بـ« لامول » ، وأنا أصرخ منادياً على نفسى : كيان جديد ! كيان جديد !

كان جهدى الأوحد هو ألاَّ أكشف وأخفى ـ بشكل تلقائى ـ كل ما أومن به ، وبما يتعلق بكيانى الأسبق ، وبمعنوياتى الأولى ، بكل الحقارة الممكنة لعلمى ، وبكل ازدراء لذوقى كعالم .. لقد رفضت أن أرى معبد «أجريجنته» ، وبعد عدة أيام ـ وفوق الطريق المؤدى إلى نابولى ـ لم أتوقف عند معبد بوستوم، الذى تحس فيه بحضارة الإغريق ، والذى صليت فيه قبل عامين لإلـه لم أعرف كنهه .

هل يمكن أن أتكلم عن قوة فريدة ؟ هل يمكن أن أهتم بنفسى وكأننى كيان كامل ؟ هذا الكمال المجهول الذى أتخيله بطريقة مشوشة ، لم تتحمس له إرادتى قط إلا من أجل لمسة ، لقد قمت بتوظيف هذه الإرادة فى داخلى وأنا أحصن جسمى ، وأصبغه باللون البرونزى ، قريباً من سالرينو ، وعندما تركنا الشاطىء توجهنا إلى « رافيلُّو» ، وهناك بدا الجو صحواً، وبدت الصخور مليئة بالانكماش والمفاجآت ، وأعماق العقيق الغامضة تساعدنى فى أن أسترد قوتى ، وبهجتى ، وأن أحقق قفزة للأمام .

بدت « رافيلُّو » أكثر قرباً من السماء وبعيدة عن الشاطىء ، إنها تطل

على حافة عالية ، تبدو فى مواجهة الشاطىء البعيد والمسطح وكأنها واقعة تحت السطوة النورماندية ، وتبدو « بوستوم » وكأنها مدينة ذات أهمية ، كانت تطل على شريط ساحلى ضيق، كنا نتقابل فيه. نحن الغرباء ـ على ما أعتقد ـ فى منزل دينى قديم ، تحوَّلَ الآن إلى فندق قائم فى قمة الصخرة ، وشرفاته وحديقته تبدو كأنها مائلة فى السماء الصافية ، وبعد الجدار الملىء بالأغصان لا نرى شيئاً سوى البحر .

يجب أن نقترب من الجدار كى يمكن متابعة المنحدر المزروع الذى يربط «رافيلُّو» بالساحل بواسطة السلالم والممرات . تظهر الجبال فى أعلى «رافيلُّو»، وأشجار الزيتون ، وأشجار الخروب الكثيفة ، وتنطلق الأبخرة فى ظلالها . أما أشجار الكستناء فتبدو عالية وكثيفة . هناك نباتات الشمال أكثر انخفاضاً ، ومقابر قريبة من البحر ، إنها مرتبة فى زراعات صغيرة فوق المنحدر ، إنها حدائق مدرجة ، أو هكذا تقريباً ، فى وسطها ممر ضيق ، وفى أطرافها معبر يمكن الدخول إليه بلا أى ضجيج ، كم يمكن للمرء أن يحلم تحت هذا الظل الأخضر ، فالأوراق كثيفة وثقيلة ، ولا يمكن لأى أشعة أن تخترقها ، كأنها نقاط الورنيش الكثيف ، أما الليمون فتنبعث روائحه ، ويبدو فى الظل أبيضَ أو مائلاً إلى الخُضرة . إنها تكاد تُلْمسُ باليد ، وتبعث على الانتشاء .

كان الظل كثيفاً ، لم أجرؤ على أن أتوقف تحته بعد المشى كى ألتقط أنفاسى ، فبرغم أن السلالم لم تنهكنى كثيراً ، فإننى رحت أتنهد وأنا أغلق فمى، وكنت ألهث وأنا أقول لنفسى : سوف أصل إلى هناك بلا تعب ، نعم سأصل إلى هدفى ، وأجد مكافأتى فى كبريائى السعيدة . تنفست طويلاً ، وبعمق شديد ، وبطريقة تبدو لى كأن الهواء يدخل صدرى ليغسله ، أنا أُولِى العناية لكل جسدى المنضبط تماماً ، ثم أتقدم .

كم أندهش وأنا أحس بصحتى تُسترد سريعاً ، لدرجة أننى اعتقدت أننى كنت أبالغ فى حالتى الصحية ، وشككت أننى كنت مريضاً ، وضحكت من دمائى التى بصقتها ، وأسِفْتُ لأن شفائى لم يستغرق سوى القليل من الوقت .

كانت عنايتى بنفسى بالغة الأهمية فى البداية ، وأنا أجهل حاجات جسمى ، وتذرعت بالصبر ، وتملكتنى مهارة شديدة ، لدرجة أننى رحت أتصرف وكأن الأمر لعبة ، برغم كل الحذر والعناية ، أما الذى جعلنى أعانى كثيراً فهو حساسيتى المرضية لأقل تغيُّر فى درجات الحرارة ، فبرغم أن رئتىَّ الآن قد شُفِيَتَا ، فإننى يمكننى أن أغدو عصبيًّا ، حساساً للمرض ، وأحاول أن أتغلب على كل هذا ، وأن أرى البشرة تصطبغ وتخترقها أشعة الشمس، والناس الذين يعملون فى الحقول يفتحون ستراتهم ، وكأنهم يصبغون بشراتهم مثلى . ذات يوم رحت أخلع ملابسى ، وأخذت أنظر إلى نفسى ، لم تجعلنى رؤيتى لجسمى النحيف ولكتفى أستطيع أن أتراجع إلى الوراء ، ولكن ملأنى الخجل لجسمى الأبيض ، ولبشرتى التى تلونت ، ورحت أذرف الدمع . وسرعان ما ارتديت ملابسى ، وبدلاً من النزول إلى «امافاليا» مثلما اعتدت أن أفعل ، توجهت إلى صخرة مغطاة بالأعشاب والحشائش ، بعيدة عن العمار ، وعن الطرق ، حيث أعرف أن أحداً لن يرانى ، وهناك بدأت أخلع ملابسى ببطء ، وبدا الجو مليئاً بالحيوية ، لكن الشمس حامية ، رحت أقدم جسمى للهيبها . أجلس ، وأنام ، وأدور ، وأحسست بالأرض الصلبة من تحتى ، تثيرنى حركة الأعشاب المجنونة ، وتحت الرياح كنت أرتعد ، وأهتز لكل هبة ريح ، وبدت سيقانى ضعيفة للغاية ، وتوافد كل وجودى نحو بشرتى .

أقمنا فى « رافيلُّو » خمسة عشر يوماً ، كنت أتوجه فيها كل صباح إلى هذه الصخور من أجل إجراء علاجى ، وأصبح خلع ملابسى التى تغطينى أمراً ممتعاً ورائعاً .

وفى صباح أحد هذه الأيام الأخيرة (كنا فى منتصف شهر أبريل) اشتدت جرأتى فى منحنيات الصخور التى أتكلم عنها ، رأيت نبعاً تنساب مياهه كأنه شلال، وإن كان يبدو ضعيفاً ، لكن تحت الشلال هناك حفرة عميقة تتحرك فيها مياه نقية . لقد جئت هنا ثلاث مرات ، وتوقفت ، وتمددت فوق الحافة ، وقد غمرنى العطش والرغبة ، رحت أتأمل أعماق الصخرة مليًّا حيث لا يمكن أن نكتشف أى شائبة ، ولا نبتة عشب واحدة، أما الشمس فهى لا تكاد تختفى حتى تعود . فى هذا اليوم الرابع تقدمت نحو الماء ، وكان عزمى أكثر شدة من أى فترة سابقة، ودون أدنى تفكير غصت بكاملى فى داخله ، لكننى سرعان ما تركت المياه وتمددت فوق العشب تحت الشمس ، هناك حيث تتشابك فروع النعناع المعطر . . رحت أجمعها ، وأمسكت أوراقها ورحت أدعكها بجسمى المبلل الذى يحترق وأنا أنظر إلى نفسى بدون أى خجل ، وبكل فرحة ، لم أر نفسى فقط قويًّا ، ولكن يمكننى أن أكون كذلك مليئاً بالتناسق والحسية والجمال .

7

هكذا أحسست بالسعادة إزاء كل نشاط وكل عمل أقوم به ، وللتمرينات الطبيعية التى جعلت معنوياتى تتغير . لم يَبْدُ لى هذا أكثر من وسيلة للراحة لم تكن كافية لإرضائى .

هناك حدث آخر ، لمسته عيونكم الساخرة ، وهو أننى قمت بحلاقة شعرى وأنا فى « أمالفيا » .

كنت قد احتفظت بلحيتى حتى هذا اليوم ، وبشعرٍ حليق تقريباً، لم تنتبنى الفكرة أننى سأكون أفضل لو قمت بتغيير تصفيف شعرى ، وفجأة، فى أول يوم تعرَّيْتُ فيه فوق الصخرة ، راحت هذه اللحية تضايقنى، وكأنها قطعة أخيرة من الملابس لم أستطع أن أتخلص منها ، أحسست كأنها مصطنعة برغم أنها كانت معقوصة بعناية ، ليس إلى الحد اللازم ، ولكن فى شكل مربع ، يبدو لى أيضاً غير مريح وعبثيا . عندما عدت إلى غرفتى فى الفندق ، نظرت إلى المرآة ولم أعجب بنفسى ، كان مظهرى حتى ذلك الحين أشبه بشخص أجريت عليه بعض التحسينات .

حين نزلت إلى « أما لفيا » كانت المدينة صغيرة للغاية ، وكان علىَّ أن أتسوق من محل شعبى فى الميدان ، إنه يوم السوق . كان المحل مزدحماً ، وعلىَّ أن أنتظر طويلاً ، لكننى لم أجد شيئاً ، لا الأمواس الحادة ، ولا فرشاة

الحلاقة الصفراء ، ولا العطور ، ولا أدوات حلاقة . لا يمكن أن أتراجع . أحسست بلحيتى تسقط تحت تأثير المقصين ، وكأننى أخلع متاعبى ، ملأنى الشعور أننى أصبحت أفضل ، ليس من الفرحة ، وإنما من الخوف ، لم أفكر طويلاً فيما تملكنى من شعور ، فقد انتابنى الخوف الذى بدا لى أنه يعرى فكرى ، أحسست فجأة أنه شىء مشكوك فيه .

وعلى العكس فقد أطلقت شعرى .

هذا هو شخصى الجديد ، شخص وُلد فى داخله حَدَثٌ مدهش ، ولكن فيما بعد قلت لنفسى إنه سيكون شخصاً بالغ الأهلية ، عليه أن يحيا ، وأن ينتظر ، رحت أتأمل ـ مثلما فعل ديكارت ـ بطريقة يمكن السير على هداها ، لدرجة أن مارسلين نفسها قد خُدعت حين شاهدتنى ، ترى هل تغيرت نظرتى حقًّا ، خاصة فى ذلك اليوم الذى ظهرتُ فيه بلا لحية ، ربما أقلقتها ملامحى الجديدة ، ولكنها تحبنى كثيراً حين ترانى ؛ لذا رحت أتصرف معها بأفضل ما يكون ، فهى تحرص ألاَّ تزعجنى وهى تختلس نظراتها ؛ لذا كان علىَّ أن أختفى .

وبرغم أن مارسلين كان عليها أن تحب من تتزوجه ، فإن هذا ليس هو «كيانى الجديد » ، وقد قلت هذا مراراً كى أحرض نفسى على التخفى ، ولم أكشف لها سوى صورة أكثر ثباتاً ، وأمانة للماضى ، لكنها أصبحت مزيفة يوماً وراء يوم .

ظلت علاقاتى بمارسلين ثابتة ، ونحن ننتظر ، مهما حدث ، يوماً وراء آخر . يكللها حب كبير . كان اختفائى (إذا كان علينا أن نسمى حاجة الجسم للتفكير بهذا الاسم) قد زاد ، أعنى أن هذه اللعبة قد شغلتنى عن مارسلين بلا توقف ، ربما أن كل هذا الكم من الكذب قد كلفنى إياها ،

ولكننى سرعان ما فهمت أن الأشياء التى تزايدت ، كالكذبات ، ولا شىء آخر عداها لم تكن صعبة الممارسة ، ولكنها أصبحت سريعة ، ومبهجة ، ومن الرقة أن نفعلها وتبدو أموراً عادية ، وأيضاً بالنسبة لكل شىء يبدو فيه الفساد مهزوماً ، بلغت درجة من الإحساس والمتعة فى هذا الاختفاء لم أعرفها من قبل ، مثل لعبة الشموليات المجهولة ، وفى كل يوم رحت أتوغل فى حياة أكثر ثراء وأكثر امتلاء ، قادتنى نحو سعادة كاملة .

8

كان الطريق من « رافيلُّو » إلى « سورنته » جميلاً مثلما تمنيت ، ففى هذا الصباح بدا كل شىء جميلاً فوق الأرض ، من انحدار الصخرة الحاد إلى انسياب الهواء ، والبساطة ، كل شىء يملؤنى بسحر رائع للحياة ، ويكفينى إلى درجة أن مجرد نسمة خفيفة من السعادة تبدو وكأنها تسكن فى داخلى . . تنساب الذكريات والاعتذارات والآمال ومشاعر الخوف من المستقبل نحو الماضى ، فأنا لم أعرف من الحياة سوى ما يأتى به الحاضر . . هتفت : « يا لها من فرحة » ! وأحسست أن عضلاتى قد استردت عافيتها .

رحلت فى ساعة مبكرة ، سابقاً مارسلين التى بدا عليها الهدوء والارتياح أكثر منى ، ولأن خطواتها تجعلنى أُبْطِىءُ خطواتى ، فقد راحت تلحقنى بسيارة فى «بوزيتانو» حيث كان علينا أن نتناول الغداء .

عندما اقتربت من بوزيتانو فوجئت ـ حين سمعت أصوات تروس ـ كأنها تشدو بأغنية غريبة ، لم أرَ شيئاً فى بادىء الأمر بسبب انحدار الطريق عند أطراف صخور الشاطىء ، وفجأة برزت عربة على الطريق ، إنها عربة مارسلين ، كان الحوذى يغنى وهو يمايل رأسه بحركات ظاهرة وهو واقف يضرب حصانه بوحشية جنونية . يا للبشاعة ! راح يمرق أمامى وكأن ليس لديه وقت ، ولم يتوقف لندائى . . هرولت ، ولكن العربة ولت الأدبار .

ارتعدت فجأة ، انطلق الحصان ، أرادت مارسلين الهروب ، ولكنها وجدتنى قريباً منها ، وما إن رآنى الحوذى حتى استقبلنى بشتائم بذيئة ، أحسست بالغضب من الرجل ، وعند أول شتمة قفزت عليه وألقيته بعيداً ، ورحت أدور معه فوق الأرض ، ولم أفقد توازنى ، بدا مبغوتاً بسقطته وبهذه اللكمة التى لكمتها فى وجهه عندما أحسست أنه سيعضنى ، ومع ذلك لم أتركه ، وضعت جبهتى فوق صدره ، وحاولت أن أسيطر على ذراعيه ، ونظرت إلى وجهه الذى زادت قبضتى من بشاعته ، راح يبصق ، وسال لعابه ، ونزف وهو يشتم : آه ، أيها المخلوق المرعب ! بدا الخنق أمراً شرعيًّا ، ولعلى سوف أفعل ذلك . . على الأقل فقد أحسست أننى قادر أن أفعل ذلك ، وأعتقد أن فكرة وجود الشرطة جعلتنى أتوقف .

وبكل صعوبة ألقيته ـ وكأنه حقيبة ـ فى العربة .

آه ! يا لها من نظرة ! ويا لها من قبلة تبادلناها ! لم يكن الخطر جسيماً ، ولكن كان يجب أن أكشف عن قوتى كي أحميها ، شعرت أننى يمكن أن أهبها حياتى ، وأن أعطيها كل السعادة . . بدا الحصان جامحاً ، صعدنا إلى السياج معاً ، ونحن فى أحسن حال .

فى هذه الليلة امتلكت مارسلين .

هل فهمت كيف أقول إننى جديد فى مسائل الحب ؟ ربما لهذا طالت ليلة عرسنا حتى هذه الليلة . . لأنه يبدو لى ـ وفى ذاكرتى الآن ـ أن هذه هى أول ليلة تحول فيها الحب إلى لذة ومتعة ، وأن ليلة واحدة تكفى لحب كبير ، وطالما أن ذاكرتى تدفعنى إلى أن أتذكر هذه الليلة فإن ضحكة انطلقت لحظة انغمست فيها أرواحنا . . لكن أعتقد أن هناك حبًّا فريداً ، وأن الريح تحاول

ـ بلا جدوى ـ أن تتجاوزه ، وأن الجهد الذى يبذل لبعث سعادته على المرء أن يبذله ، وأن لا شىء يحجب السعادة مثل الذكريات السعيدة . آه ! كم أتذكر تلك الليلة !

كان فندقنا خارج المدينة محاطاً بالحدائق والرياض ، وهناك شرفة واسعة لغرفتنا تملؤها الأغصان ، يدخل الفجر من فتحاتها الواسعة ، أتحرك برقة ولطف وأحتضن مارسلين وهى نائمة ، أحس بنفسى أكثر قوة ، أما هى فأكثر رقة وهشاشة ، برغم أن بعض الأفكار الصاخبة تعصف برأسى ، فكرت أنها لم تكذب حين قالت إننى كل شىء فى حياتها ، ثم قلت توًّا لنفسى : ماذا فعلت كى أسعدها ؟ فأنا أتركها دائماً كل يوم ، وهى دائماً تنتظرنى . . ملأت الدموع عينى ، وبلا جدوى رحت أبحث وسط ضعفى السابق عن وسيلة للاعتذار ، ماذا علىَّ أن أفعل الآن ؟ ألستُ أقوى منها فى هذه اللحظة الآن؟

لقد هجرت الابتسامة وجنتيها ، وبرغم أنها تزين كل شىء ، فإن الفجر بدا لى حزيناً وشاحباً، وربما اقتراب النهار جعلنى أحس بالشجن : هل جاء اليوم الذى يجب فيه أن أعتنى بكِ؟ كم أنا قلق بالنسبة لك يا مارسلين؟ رحت أكتب ذلك فى داخلى وأنا أرتعد ، وقد امتلأت بالحب والشفقة والرقة، وطبعتُ بكل سكينة فوق عينيها المغلقتين، الأكثر شفافية، أحلى قبلات الحب .

9

كانت الأيام التى عشناها فى « سورنته » سعيدة وهادئة ، لم أذق قبل ذلك طعمَ هذه الراحة والسعادة ، ولا أظن أننى سوف أتذوق مثلها فيها بعد ! كنت دائماً على مقربة من مارسلين ، لم أعد أهتم بنفسى إلا قليلاً ، انشغلت بها ، أو رحت أبحث عن كل وسيلة لإسعادها تلك السعادة التى وفرتها لى فى الأيام السابقة حين كنت مُلْتَزِمَ الصمتِ .

أصابتنى الدهشة حين أحسست أن حياتنا تائهة ، كنت أتصور أننى أشعر برضاء تام ، لم أكن أنظر إليها إلا كحالة مؤقتة ، بدا لى أن هذا الإعراض عن الحياة ناتج من أننى أصبحت لا أعطيها الوقت الذى تستحقه ، ولأول مرة تولدت فى رغبة للعمل من الفراغ ، خاصة أن صحتى قد تحسنت ، ورحت أتكلم بجدية عن العودة ، وعن الفرحة التى تبدو ظاهرة فى مارسلين ، وأدركت كم كانت تفتقدها منذ أمد طويل .

فى تلك الآونة ، بدأت بعض أشياء التاريخ تفقد مذاقها ، وكما قلت لكم ، فإنه منذ إصابتى بالمرض ، فإن المعرفة المجردة والمحايدة للماضى بدت لى بلا جدوى ، وفكرت أننى يمكن أن أنشغل بأبحاث أبيولوجيا ، وأن أحدد مثلاً مدى تأثير الغوطيين على تفتيت اللغة اللاتينية ، وأن أتجاهل وأهمل وجوه كل من تيودريك وكاسيدور ، وأما لسونت ومشاعرهم العظيمة حتى لا ألهث فى البحث عن علامات محددة ، من حيواتهم . الآن

فإن هذه العلامات من الفقه الكامل لم تكن بالنسبة لى سوى أفضل وسيلة لهذه الموهبة المتوحشة المتعاظمة ، والتى تبدو نبيلة ، صممت أن أنشغل بهذا العصر القديم ، وأن أحدد إحدى الفترات الزمنية فى السنوات الأخيرة من الإمبراطورية الغوطية ، وأن أضع تصوراً عن المسرح .

ولكننى أعترف أن وجه الملك الشاب أتارفيك قد جذبنى كثيراً ، تخيلت هذا الطفل ذا الخمسة عشر ربيعاً وقد انغمس تماماً مع الغوطيين ، وهو يتمرد ضد أمه « أما لسونت » ثم يقاوم ضد تربيته اللاتينية ، ويلقى عن كاهله بالثقافة كحصان يحمل سرجه كاملاً ، ويفضل المجتمع الغوطى الدونى عن العجوز كاسيدور البالغ الحكمة ، والذى تذوق لبضع سنوات - مع قسوة من هم فى سنه - عنف الحياة ولذة الحرمان ، كى يموت فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد أفسد كل شىء بعد أن أسكرته الغواية . وجدت فى هذه القفزة المأساوية حالة أكثر وحشية وحسية ، شيئاً ما مما كانت مارسلين تسميه وهى تبتسم بـ « قضيتى » . كنت أبحث عن توافق أطبقه على روحى حتى لا أشغل جسدى . ومن خلال موت « أما لريك » المرعب رحت أقنع نفسى أننى يجب أن أقرأ ذلك على أنه مجرد درس من الدروس .

بعد « رافن » رحنا فى جولة لمدة خمسة عشر يوماً ، رأينا روما وفلورنسا على عجالة ، ثم تركنا مدينة البندقية وفيرونا ، وفوجئنا بأن الرحلة انتهت ، وأنه ليس أمامنا سوى أن نتوقف فى باريس . وعهدت فى نفسى لذة جديدة ، هى الكلام عن المستقبل مع مارسلين ، وبقينا على غير يقين فيما يتعلق بموضوع وظيفة الصيف . أصابنا الملل من السفر ، وقررنا ألاَّ نرحل . تمنيت أن تتاح لدراستى الوقت الطويل والهدوء العميق ، وفكرنا فى امتلاك قطعة أرض بين « ليزيو » و « كوبرى القس » ، فى مقاطعة نورماندى الخضراء ، قطعة أرض كانت تملكها أمى فيما قبل ، قضيت فيها معها بعض

فصول الصيد إبَّان طفولتى ، كان أبى قد عهد لأحد الحرس برعايتها والسهر عليها، لقد غدا رجلاً عجوزاً ، أما الأرض فتبدو الآن وكأنها تخصه أكثر ، فهو يرسل لنا ريع الحقل بشكل منتظم ، هناك منزل كبير ومريح فى حديقة مليئة بالمياه المتدفقة تركت فى نفسى الذكريات السعيدة تسمى « لامورنيير »، وبدت لى أنها قد تكون مسكناً مناسباً .

كنت قد خصصت الشتاء القادم ، لقضائه فى روما من أجل العمل وليس للسفر ، ولكن هذا المشروع الأخير سرعان ما انقلب ، ففى بريدنا الهام الذى ننتظر وصوله منذ وقت طويل ، علمنا من رسالة مفاجئة أنه يوجد مقعد شاغر فى الكوليج دو فرانس ، وأن اسمى قد رشح لمرات عديدة، لم يكن هذا بذلك سوى رجاء ، ولكن من يترك لى فى المستقبل حرية التصرف. أشار لى الصديق الذى أخبر بالأمر ، وددت أن أوافق ، فهناك بعض الإجراءات البسيطة التى علينا اتخاذها . وراح يضغط علىَّ بقوة أن أقبل ، ترددت وأنا أتصور العبودية تقيدنى ، ثم فكرت أنه من المهم أن أعرض أعمالى فى محاضرة عن كاسيدور ، وأحسست بالسعادة أننى سأبلغ قرارى إلى مارسلين ، خاصة بعد أن اتخذته بشكل نهائى .

كان أبى قد عقد العديد من الصلات التى استكملتها بنفسى من خلال المراسلات ، جعلتنى هذه الطريقة أمارس البحث الذى أريده فى « رافن » وفى أماكن أخرى . لم أكن أفكر إلا فى العمل ، وكانت مارسلين توليه ألف عناية وألف اهتمام .

بدت سعادتنا كبيرة فى نهاية هذه الرحلة ، وهادئة لدرجة لا أستطيع أن أحكيها ، فأفضل الإبداع الإنسانى قد تم من خلال المعاناة الحقيقية . كيف ستكون السعادة ؟ ترى من يصنعها ؟ ومن يهدمها ؟ ومن يحكى عنها؟ أرد عليكم وأقول : إننى الذى صنعت هذه السعادة .

القسم الثانى



1 إلى «لامورنيير» فى الأيام الأولى من شهر يوليو ، لم نتوقف فى باريس إلا للضرورة ومن أجل التموين ، وللقيام ببعض الزيارات القليلة .

أخبرتكم أن «لامورنيير» تقع بين «ليزيو» و«كوبرى القس» فى البلاد الأكثر ظلالا، وأكثر البلاد التى عُرفت تشبعاً بالماء ، إنها مليئة بالتعاريج والمنحنيات الضيقة التى تؤدى إلى ساحل أوج المتسع الذى يطل مباشرة على البحر ، وعلى مسافة قريبة ، فإن الغابات الكثيفة يملؤها الغموض . هناك يوجد بعض الحقول ، وعلى مقربة منها ، توجد المراعى الكثيفة التى يبدو فيها العشب وكأنه ينمو منذ سنتين ، وأشجار تفاح عديدة ، وعند غروب الشمس تصنع الظلال التى تمر من بين فروع الأشجار أبراجها ، وفى كل حفرة توجد المياه والبرك ، والطمى حيث نسمع النهر وهو لايكف عن التدفق .

آه ! كم أعرف المنزل عن ظهر قلب ! أسقفه الزرقاء ، وجدرانه المشيدة من الطوب والحجارة والخنادق ، وانعكاسات الشمس فوق المياه الراكدة . . إنه بيت قديم سكنَّا فيه قرابة اثنى عشر عاماً ، كان لمارسلين ثلاثة عشر خادماً يساعدونها ، فضلاً عنى ، لقد نجحنا أن نشكل حزباً ، أما حارسنا

العجوز الذى يسمى «بوكاج» فقد راح يبذل كل ما لديه من أجل تجهيز بعض الغرف . لقد استيقظ أثاث الغرفة من نومه بعد عشرين عاماً من الرقاد، بقى كل شىء هناك كما هو ماثل فى ذاكرتى، كانت النقوش لاتزال مهدمة ، أما الغرف فلم يسكنها أحد قط . وكأنها مستعدة لاستقبالنا . راح بوكاج يملأ كل الزهريات بالورود التى وجدها أمامه ، وراح يعزق ويجرف الحوش الكبير والحديقة القريبة من الممرات ، لقد عاد لنا البيت الكبير أخيراً، وتسلل إليه الشعاع الأخير من الشمس ، أما الوادى فقد ملأه الضباب الذى يبدو كأنه يطير حين يبلغ النهر . وقبل أن أصل بقليل تعرفت على رائحة العشب ، وعندما قمت بدورة حول المنزل سمعت زقزقات البلابل ، وانتفض الممر وكأنه ينتظرنى ويعرفنى ، ويريد أن يمنع اقترابى منها .

وخلال بضعة أيام ، أصبح المنزل أكثر ملاءمة ، وأصبح فى إمكانى أن أبدأ العمل ، فرحت أسمع وأتذكر كل الماضى ، ثم رحت أحسه بمشاعر جديدة ، وقد حدثتنى بعد وصولنا بأسبوع أنها حامل .

بدا لى منذ تلك الآونة أن علىَّ أن أعتنى بها من جديد ، وأن لها الحق فى المزيد من الحنان ، على الأقل فى الفترة الأولى التى أعقبت تصريحها ، حيث رحت أقترب منها كل ساعات النهار ، . كنا نجلس على مقربة من الغابة فوق المقعد الذى كنت أجلس عليه سابقاً مع أمى ، هناك تنتابنا الرغبة فى كل لحظة ، تجرى الساعات بسرعة ، لم ترتبط بذاكرتى أى غريزة فى هذه الفترة ، ولم أحتفظ منها بأقل قدر من الذكرى ، ولكن برغم أن كل شىء ينغمس فىَّ ، فإن الأمور قد تشكلت فى شكل واحد ، حيث يندمج المساء

بالصباح بلا فاصل ، وترتبط الأيام ببعضها البعض بدون إحداث أى مفاجأة .

استعدت قدرتى على العمل ببطء ، وبروح هادئة ، ساكنة ، واثقاً فى قوتها ، متطلعاً نحو المستقبل بكل ثقة ، وبإرادة قوية ، كأننى أسمع نصيحة تنبعث من هذه الأرض البسيطة .

رحت أفكر أن هذه الأرض التى تنمو فيها كل الفواكه والعشب الكثيف قد تركت أثرها علىَّ ، وهو أثر ممتاز ، ورحت أتأمل المستقبل الهادىء الذى يتمثل فى هذه المراعى الوفيرة ، وأشجار التفاح التى تطرح نباتات من أفرعها المدلاة فوق التلال التى أثمرت فى هذا الصيف محصولاً رائعاً ، رحت أتخيل ، ترى أى تلك الأفرع سوف يمتلىء بالفواكه التى تنمو فوق زرعها من هذا الرخاء المبهج ، وهذه الزراعات المزدهرة ؟ هناك إيقاع لحنى متناسق ، ليس فجائياً ولكن وطيداً ، إيقاع متناسق ، جمال إنسانى وطبيعى ، لانعرف ماذا يعجبنا ، يختلط مع الخصوبة المتفجرة للطبيعة الحرة ، وبمعرفة الإنسان الذى ينظمها . رحت أتساءل : ترى ماذا تكون هذه المعرفة ؟ وهل هناك إمكانية لإنقاذها ؟ ماذا ستكون الدفعة الموحشة لهذه العصارة الفائضة من مكنون الذكاء الذى يسدها ويصحبها وهو يضحك ؟ تركت نفسى أحلم بالأرض التى تقوم فيها كل القوى بكل ماهو لازم ، وتدبر كل المصاريف الممكنة وكل التغييرات المتاحة . وأصبح الأمر حساساً ، فهأنذا أطبق حلم حياتى ، أشيد علم أخلاق يصبح عملاً مفيداً للإنسان من خلال مكنونه وذكائه .

أين أغوص فيه ؟ وأين أختبىء من متاعب الأمس ؟ بدا لى أننى هادىء ، وأنها لم تكن هناك قط ؛ لذا تدفق حبى الذى يكشفها جميعاً .

فى تلك الآونة راح العجوز بوكاج يصنع الحماس من حولنا، كان يدير كل شىء ، يرقب وينصح ، ونحس بحاجته أن يبدو كشخص يجب عدم مناقشته ، وحتى لانجبره فقد كان عليه أن نختبر حساباته ونسمع كل تفسيراته اللامتناهية ، لم يكن هذا يكفيه ، كان علىَّ أن أصحبه فوق الأرض الزراعية أسمع أحكامه المثالية ، وخطبه المستمرة ، وأرى الرضاء التام يلفه وخلال فترة قصيرة من الزمن راح يغيظنى ، فقد أصبح متعجلاً شيئاً فشيئاً ، بدا لى هذا أمراً جيداً من أجلى ، عندما يحدث شىء غير عادى فإنه يعطى علاقتنا معاً سمة مختلفة ، فقد أعلن بوكاج ذات مساء أنه ينتظر وصول ابنه شارل فى صباح اليوم التالى . هتفت بصوت ذى نبرة مختلفة : آه ! فحتى تلك الفترة لم أكن أعرف الكثير من مشاعر الأطفال حتى أفهم بوكاج ، ثم رأيت أن اختلافنا قد مسه ، وأنه كان ينتظر منى بعض دلائل الاهتمام والدهشة سألته :

ـ أين هو الآن ؟

رد بوكاج : فى مزرعة نموذجية ، قريبة من البنسيون .

أكملت : لعله الآن قد اقترب من . .

رحت أخمن من هذا الابن الذى لم أكن أعلم بوجوده حتى تلك اللحظة ، وتكلمت ببطء كى أترك له فرصة مقاطعتى ، رد بوكاج :

ـ سبعة عش[illegible] عاماً مضت ، لم يكن عمره أكبر من أربع سنوات عندما ماتت السيدة أ[illegible]ك . آه إنه شاب كبير الآن ، وقريباً سوف يصبح أطول من أبيه . . «وعلق بوكاج ذات مرة أن لاشىء يمكن أن يوقفه بعد أن بدا أننى أحسست بالملل .

فى صباح اليوم التالى لم أفكر إلا فى هذا الأمر ، وعندما جاء شارل فى نهاية اليوم ، راح يلقى بتحيته لمارسلين ولى . بدا شابًّا جميلاً ، موفور الصحة ، ومرن الجسم ، ووسيماً وهو بملابسه المدنية الأنيقة التى ارتداها على شرفنا ، ولم يستطع أن يجعل منها شيئاً سخيفاً ، أضاف خجله على ملامحه بعض الحمرة الطبيعية . بدا فى الخامسة عشرة من عمره ، اكتست نظراته بملامح طفولية ، راح يتكلم بسلاسة بدون أن يحس بأى خجل ، وعلى عكس أبيه ، لم يكن يتكلم لمجرد الكلام ، لا أذكر فى أى موضوع تناقشنا فى الأمسية الأولى، انشغلت بالنظر إليه ، لم أجد شيئاً أقوله ، وتركت مارسلين تتحدث إليه ، ولكن فى اليوم التالى وللمرة الأولى لم أنتظر أن يجىء العجوز كى يأخذنى إلى المزرعة ، حيث عرفت أن الأعمال قد بدأت .

كان الأمر يتعلق بإصلاح بِركة ، إنها البركة الكبيرة التى كانت تسرب المياه، عرفنا مكان التسرب من أجل أن نوقفه بالأسمنت ، يجب أن يبدأ الأمر بتفريغ البركة من المياه ، لم نفعل هذا منذ خمسة عشر عاماً ، هجرتها أسماك «السبوط» و«الكمة» ، وتضخم بعضها فى الأعماق ، أردت أن أجمعها فى مياه الخندق وأن أعطيها للعمال مما أضاف شيئاً من متعة الصيد إلى العمل، معلناً عن إعادة الحياة إلى المزرعة ، وسرعان ما جاء بعض أطفال الضواحى واختلطوا بالعمال ، أما مارسلين فقد تأخرت عن الانضمام إلينا .

انخفض منسوب المياه قبل فترة طويلة من وصولى ، كان أحياناً يعلو فجأة فوق السطح فتظهر الأسماك السمراء الشفافة فى وسط المستنقع ، ويقف الأطفال الموحلين وهم يلتقطون الأسماك الصغيرة ثم يلقونها فى جرادل مليئة بالمياه النقية فى مياه البركة ، وما تلبث حركة الأسماك أن تعكرها وتصبح بين لحظة وأخرى كثفة ومعتمة . زادت الأسماك هناك ، ولو وضعت يديك

مصادفة فإنها ستمتلىء بالأسماك ، أحسست بالأسف أن مارسلين قد انتظرت ، وقررت أن أبحث عنها عندما انطلقت التهليلات معلنة عن ظهور سمك الأنفلس ، لم ينجح أحد فى الإمساك بإحداها ، فهى ما تلبث أن تنزلق بين الأصابع ، لم يتمكن « شارل » من الإمساك بها ، وكان يقف قريباً من أبيه ، فجأة خلع جوربه وحذاءَهُ ووضع سترته جانباً ، وشمر بنطاله عالياً وأكمام قميصه ، وانغمس فى الطين المتحرك ، ولتوى رحت أشجعه .

صحت : « حسناً يا شارل ، هل عدت بالأمس ؟ » .

لم يرد ، راح ينظر إلىَّ وهو يضحك ، وقد انشغل تماماً بصيده ، ناديته كى يساعدنى فى أن أحاصر إحدى السمكات ، وتماسكت أيادينا من أجل الإمساك بها ، ثم رحنا نمسك واحدة أخرى . ملأ الوحل وجوهنا ، وأحياناً كنا نغوص فجأة فى الماء حتى الركب ، فنبتل تماماً ، ورحنا نتبادل بعض الصيحات أثناء اللعب ، وفى آخر النهار لاحظت أننى رفعت الكلفة عن شارل . بدون أن أعرف متى بدأ هذا الحادث المشترك الذى علم كل منا أنه لايمكن أن نتحدث طويلاً . لم تكن مارسلين قد جاءت ، ويبدو أنها لن تجىء، ولم أحس بالأسف لغيابها ، بدا لى أن حضورها يمكن أن يفسد متعتنا قليلاً .

فى صباح اليوم التالى خرجت لملاقاة شارل فى المزرعة ، ثم توجهنا معاً نحو الغابة .

اندهشت وأنا الذى لا أعرف أرضى جيداً وأشعر بالقلق لأننى لا أعرفها ، ولأن شارل يعرفها أفضل ، خاصة المنتجات الزراعية ، راح يعلمنى

ما سبق أن تعلمته من ستة مزراعين ، وأخبرنى أننى يمكن أن أكسب من ستة إلى ثمانية عشر ألف فرانك من إنتاج المزرعة ، وأننى يمكن أن أكسب النصف لو قمت بإصلاح المزرعة من جميع النواحى . ثم ابتسم وهو يفحص الزراعات ، مما جعلنى أتشكك فى أن أرضى يمكن أن تصبح ممتازة أكثر مما كنت أعتقد ، وأننى يمكن أن أولى بها إلى بوكاج . فاتحت شارل فى هذا الموضوع ، وبدا على هذا الطفل العملى أنه يعمل على تسليتى بذكائه ، فقد رحنا نتنزه يوماً وراء يوم ، كانت ممتلكاتى واسعة ، وعندما نفتش كافة الجوانب نبدأ بأكثرها تقليدية . لم يُخْفِ شارل عنى مشورته عند رؤية بعض الحقول مزوعة بشكل سيىء .

فهناك مساحات استولت عليها أعشاب القرنيات ، والأشواك ، والحشائش الجافة . كان يعرف كيف يجعلنى أشاركه كراهية هذه الأرض ، وأن أحلم معه بزراعة أفضل .

قلت له : لكننى أعانى من الأشخاص المُدَّعين ، هل المزارع الحقيقى موجود ؟ ربما أن إنتاج المزرعة لايفى بثمن المنتجات الحقلية .

أحس شارل بالغضب ، وقال : لو سمحت لى أن أرد ، فأنت لاتعرف شيئاً ـ ابتسمت ـ ولاتهتم بالعائد ، ألم تلحظ أن العائد قد قل ؟ أرضك غير مزروعة جيداً ، إنها تفقد قيمتها ببطء .

ـ لو تمت زراعتها بشكل أفضل فإننى أشك أن المزارع لن يستغلها ، أعرف أنه يمكن أن يحصدها كما يجب أن يكون الحصاد .

أكمل شارل : أنت لاتدخل الأيدى العاملة فى الحساب ، فهذه الأرض

بعيدة أحياناً عن المزارع ، وعند زراعتها لن تدر شيئاً ، أو هكذا تقريباً ، ولكنها على الأقل لن تبور .

استمر الحوار لمدة ساعة ونحن نخترق الحقول وبدا لنا أننا نكرر نفس الشيء ، رحت أستمع إليه كل يوم ، وقلت له يوماً وقد نفد صبرى :

ـ على كُلٍّ ، فهذا يرجع لأبيك .

أصابت الحمرة شارل قليلاً ، وقال :

ـ أبى رجل عجوز ، وعليه أن يسهر على الناحية الجمالية ، فيهتم بالمبانى ، والقيام بأعمال المزرعة على أحسن واجب ، وليست مهمته الإصلاح

أكملت : أى إصلاح تود ؟

تهرب من الإجابة زاعماً أنه لايعرف شيئاً . وتحت إلحاحى الشديد رحت أشرح له وأنا أضيف :

ـ نضم إلى المزارع كل الأرض التى أُهملت زراعتها ، فإذا ترك الزُّرّاعُ جزءاً من أرضهم بوراً فإن هذا دليل أن عليهم أن يدفعوا لك الكثير لإصلاحها ، أو يمكنهم أن يزعموا أشياء كثيرة ، فيروحوا ينقصون ثمن المنتجات الزراعية ، الناس كسالى فى هذا البلد .

كانت هناك ست مزارع استعدتها بإرادتى ، وتقع فوق التل الذى يطل على «لامورنيير» ، كان اسمها «لافالترى» ، لم يبد المزارع الذى يتولاها شخصاً جذاباً عندما تحدثت معه ، وقريباً من «لامورنيير» هناك مزرعة تسمى «مزرعة العقد» أجَّرَ بوكاج نصفها بطريقة المشاركة مستغلاً غياب المالك ،

وملكيته، لجزء من الماشية . الآن وُلِدَ التحدى ، وبدأت أشك فى ذمة بوكاج نفسه ، وأنه قد خدعنى ، أو على الأقل أنه قد ترك البعض يخدعوننى، حقًّا إنه احتفظ لى بأسطبل وزريبة ، لكن بدا لى أنها لم تخصص إلاّ للمزارعين لكى يطعموا أبقارهم وجيادهم بالقرطم الذى أملكه ، وعلفى. تناهت إلى مسامعى أخبار عديدة أن بوكاج - من وقت لآخر - كان يعطينى الإيحاء أنها قد نفقت ، أو ماتت أو مريضة ، وقد ارتضيت بكل هذا، يكفى أن تسقط إحدى الأبقار مريضة كى تصبح بقرتى ، لم أفكر فى أن ذلك يمكن أن يكون حقيقة ، فإذا تحسنت إحدى الأبقار بعيداً فهى بقرة المزارع ، هنا بدأت بعض تعليقات شارل تفلت منه ، وكشف بعض الملاحظات الشخصية لى، وسرعان ما استيقظ ضميرى .

راحت مارسلين تضع كل شىء فى الحسبان ، برغم أنى حذرتها أن تفعل ذلك ، لكنها لم ترتكب أى خطأ ، أفلتت منها مسألة عدم أمانة بوكاج ، ماذا نفعل ؟ هل نطرده ؟ رحت أتدبر الأمر بغضب وقررت أن أرقب الحيوانات وألاَّ أتركها بعيدة عن ناظرى .

كان لدى أربعة جياد وعشر بقرات ، وهناك ما يمكن تسميته «مُهْر» برغم أنه كان هناك منذ ثلاث سنوات ولم نهتم بالاعتناء به ، بدأت أهتم به فعلاً عندما بدا لى ذات يوم أنه شرس للغاية ، وأنه لايمكن أن يكون مفيداً لنا ، ومن الأفضل أن أتخلص منه ، وحتى لايتسرب إلىَّ الشك فقد كسر مقدمة عربة صغيرة ، ولوَّث العراقيب بالدماء .

رحت أحتفظ بهدوئى فى ذلك اليوم ، وما أثارنى هو اهتمام بوكاج ، لاحظت أن به ضعفاً وسوء نية ، فالخطأ هو أن يحس الخدم أن لا أحد يوجههم .

خرجت إلى الحوش لأرى المهر ، ما إنْ سمعنى حتى اقترب ، راح الخادم الذى يضربه يداعبه ، وتصرفت كأننى لم ألحظ شيئاً ، لم أكن أعرف الكثير عن الجياد ، ولكن هذا المهر بدا لى جميلاً ، ذا شكل جذاب ، وتشع الحيوية من عينيه ، وتبدو خصلته وذيله ذَوَاتَىْ لون أشقر . تأكدت أنه لم يُجْرَح ، وبُلِّغْتُ أنهم قد ضمدوا جراحه ، ولم أنطق بكلمة واحدة .

وفى المساء ، ما إن رأيت شارل حتى حاولت أن أعرف رأيه فى «المهر» فقال لى :

ـ أعتقد أنه رقيق ، ولكنهم لايعرفون معاملته ، وسوف يدفعونك إلى أن تفقد أعصابك !

ـ كيف تزعم ذلك ؟

أجاب : ألا يريد السيد أن يجعلنى مسئولاً عنه ثمانية أيام ؟

ـ ماذا ستفعل به ؟

ـ سوف ترى .

فى صباح اليوم التالى صحب شارل «المُهر» فى ركن من المرعى تتكثف فيه الأشجار ، ويحيط به النهر ، فى حين رحت أرافق مارسلين . بدا أكثر حيوية ، ربط شارل «المهر» بحبل طوله عدة أمتار فى وتد مثبت فى الأرض . بدا المهر عصبيًّا وغاضباً ، وراح يضرب فى الهواء ، ثم برك ، وقد أصابه التعب ، ثم استدار بطريقة بالغة الهدوء ، كان خببه يبدو محبباً بكل ما به من خفة ، ويبدو للعين جذاباً وكأنه يرقص . وقف شارل فى منتصف الدائرة يتجنب فى كل دورة أى قفزة مفاجئة ، ويروح يهدئه بكلمة ، ويمسك سوطاً فى يده لم يستخدمه ، بدا كل شىء طبيعيًّا فى حركاته وشبابه

وبهجته ، مما أعطى هذا العمل مظهراً يبعث على الفرحة . فجأة ، لم أعرف كيف امتطى الحيوان ، كان يعرف كيف يبطىء حركاته ، ثم يتوقف ، داعبه خفيفاً ، ثم رأيته فوق المهر ، والآن يلمس شعره ضاحكاً ويطيل مداعبته ، ظل المهر مركوباً لحظة ، بعد أن استعاد خببه الطبيعى ، بدا جميلاً ومرناً . مثلما أراد شارل . قلت له :

ـ بضعة أيام من التدريب ولن يضايقه السرج . وبعد أسبوعين سوف تجرؤ مارسلين على أن تركبه ، سيكون رقيقاً كالحمل .

رد : «حقًّا» . وبعد أيام استسلم الحصان للمداعبة ، وتصرف بدون تحدٍّ، وركبته مارسلين عندما كان عليها أن تجتاز هذا الاختبار ، ثم سمعت شارل يقول :

ـ يجب أن يجرب السيد .

هذا هو مالم أحاول أن أفعله ، ولكن شارل اقترح أن أسرجه من أجله ، أو أى حيوان آخر فى المزرعة ، وكانت صحبته تجعلنى أشعر بالمتعة .

كم أنا مُدان لأمى ، إنها جعلتنى أروض الخيل أثناء شبابى الأول ، لقد أفادتنى هذه الذكرى البعيدة من الدروس الأولى ، لم أشعر بالدهشة لجلوسى فوق السرج ، وخلال لحظات قليلة لم أعد أخشى شيئاً ، أحسست بأننى على راحتى ، وكان الحصان الذى يركبه شارل أكثر ثقلاً ، وبلا أصل، ولكن رؤيته لم تكن تسر ، خاصة أن شارل كان يمتطيه بشكل جيد. اعتدنا أن نخرج قليلاً كل يوم ، وكنا نفضل أن نخرج فى الصباح إلى البرارى الواسعة الوردية اللون حتى نصل إلى أطراف الغابة ، ثم نجتاز الممر المائى ونتبلل . ينفتح الأفق شيئاً فشيئاً ، إنه وادى «أوج» الواسع ، تصورناه

البحر من بعيد ، وقفنا لحظة بدون أن ننزل ، هناك ولدت الشمس ملونة ، وأشرقت، ثم نثرت الضباب . استأنفنا الرحيل فى خُطاً طويلة ، إلى أن بلغنا المزرعة حيث العمل يكاد يبدأ ، أحسننا بالفرحة الممزوجة بالفخر ، فقد سبقنا العمال ، ثم تجاوزناهم ، وعدتُ إلى «لامورنيير» فى اللحظة التى استيقظت فيها مارسلين .

عدتُ ثَمِلاً من الهواء ، مذهولاً من إيقاع الأشياء ، استرخت الأعضاء قليلاً من تأثير الماء، فى حين كان الأمل لايزال مليئاً بالصحة والشهية والطزاجة . بدت مارسلين كأنها تود أن تشجع خيالى ، جلست إلى جوار السرير تنتظرنى، وانبعثت رائحة الأوراق المنداة التى تعجبها ، وراحت تسمعنى أحكى لها عن السباق ، وعن صحوة الحقول ، وبداية العمل . . انتابتها فرحة عارمة ، وبدت كأنها تجعلنى أشعر بالحياة ، وكلما غمرتها الفرحة رحت أفرط فى الحكايات ، فتطول فرحتنا ونزهاتنا ، مما جعلنى فى بعض الأحيان أعود عند منتصف النهار .

فى بعض الأحيان كنت أحتفظ لنفسى ـ على أحسن ما يكون ـ بنهاية النهار والمساء كى أقوم بدراستى ، وليتقدم عملى . كنت راضياً ، ولم أعتبر هذا عملاً مستحيلاً ، وأننى يجب أن أستجمع كل دروسى فى جزء واحد كأمر طبيعى كى تنتظم حياتى ، وأنا أنظم كل شىء ، لقد استحوذ علىَّ علم أخلاق الغُوطيين ، وانشغلت بدراستى تماماً ، واهتممت أن أختزل كل ما يمكن أن نذكره وأنا أتساءل : ترى إلى أى مدى يمكن لهذه الحكمة أو الجنون أن يذهب بى ؟

ود اثنان من المزارعين ، الذين يستمر إيجارهم حتى عيد الميلاد ، أن يجددا الإيجار عندما قابلانى ، كان الأمر يتوقف على التوقيع ، تقول الورقة

«وعد بالإيجار» . وبكل ثقة من شارل ، وتأثراً بأحاديثه اليومية ، رحتُ أنتظر المزارِعَيْن اللذين بَدَوَا قويين أكثر من أى مزارعين . طلبا فى البداية تخفيض الإيجار ، وبدت عليهما الدهشة عندما أخبرتهما أننى قرأت «الوعد» الذى قرأته ، وقلت إننى لا أرفض فقط تخفيض ثمن المنتجات الحقلية ، ولكن أيضاً أَنْ أُخفض بعض قطع الأرض التى أحتفظ بها ولم يستخدماها . تظاهرا فى البداية بالضحك ، ورحت أمزح ، ترى ماذا سأفعل بهذه الأرض؟ إنها لاتساوى شيئاً ، وطالما أنها لاتساوى شيئاً فإننا لن نفعل بها شيئاً . . عاندَا فعاندتُ من ناحيتى ، تصورا أنهما يخيفاننى وهما يهددانني بالرحيل ، وعندما تخيلت أننى لم أسمع سوى هذه الكلمة قلت لهما :

ـ «هه ! ارحلا إذا أردتما ! ولن أعيدكما » .

وأمسكت «وعد الإيجار» ومزقته أمامهما .

بقيت هكذا . ماسكاً أكثر من مائة هكتار بين ذراعى ، لقد وكلت إدارتها إلى بوكاج منذ بعض الوقت ، معتقداً أنها سوف تُدار بشكل غير مباشر من شارل ، وتصورت أننى يمكن أن أهتم بها من ناحية أخرى ، ولم أفكر طويلاً فى هذا الأمر ، الخطر هو أن العناد أمسك بى ، كأن المزارعين لن يُخليا المكان إلا فى عيد الميلاد . وأخبرت شارل بالأمر ، وأسعدتنى فرحته، لم يستطع أن يخفيها ، مما جعلنى أحس كثيراً بشبابه وراح الوقت يتحرك ، كنا فى هذه الفترة من السنة حيث تترك المحاصيل بدون جنى فى الحقول من أجل الحرثة الأولى ، ومن خلال اتفاق ما ، فإن أعمال المزارع تتم وتتقاطع فيما بينها ، حيث تترك القطعة تلو القطعة ، خاصة التى تنمو فيها الأعشاب، رحت أشك فى كراهية المزارعين البغيضة ، فهم يعجبهم أن

يتظاهروا بسلوك مثالى أمام ناظرى (لم أعرف الهدف من ذلك إلا فيما بعد) لقد أنهك الرجل الأرض الزراعية التى استأجرها والتى ستعود إلىَّ قريباً . الآن اقترب الخريف، ويجب أن أستأجرَ أكثر من رجل كى أسرع من عمليات الحرث ، والبَذْر . اشترينا نوارجَ ، وقلابات ، ومحارثَ ، ورُحت أتجول فوق جوادى ، أرقب وأدير الأعمال ، وأنا أحس بالمتعة أننى آمُرُه ، وأُسيطر .

فى تلك الآونة ، كان المزارعون فى المراعى المجاورة يجمعون التفاح المتساقط ، ويدورون داخل الأحراش الكثيفة التى بدت مهملة لسنوات عديدة ، لم يكن هناك عدد يكفى من العمال ، جاءوا من القرى المجاورة للعمل كأُجراء لمدة ثمانية أيام ، كنا نتسلى أحياناً ، أنا وشارل فنساعدهم ، يهز بعضهم الأفرع لإسقاط الثمار الناضجة ، كما يتم جمع الثمار الساقطة تحت الأشجار ، إنها دائماً مضروبة فى الأعشاب العالية ، التى لايمكن أن نمشى فيها بدون أن ندوس عليها . كانت الرائحة المنبعثة من المرعى نفاذة العبق ، ورقيقة ، وتختلط برائحة المحاريث .

تقدم بنا الخريف ، وبدت الأيام الأخيرة أكثر جمالاً وإنعاشاً وصفاءً ، كان الجو أحياناً يبدو قرمزيًّا ويصبغ الأفق بزرقة ، مما يجعل من النزهة سفراً، بدا البلد كبيراً ، وأحياناً على العكس ، تجعل شفافية الجو الأفق أكثر قرباً ، فنكاد نبلغه بضربة جناح ، فلا أعرف أىَّ الاثنين يملأ المكان ، استمر ذلك حتى كاد العمل ينتهى ، أقول ذلك لأننى كنت أشرد قليلاً . أما الوقت الذى لا أَمُرُّ فيه على المزرعة فإننى أقضيه مع مارسلين ، حيث نخرج معاً إلى الحدائق ، نمشى ببطء ، وتضع رأسها على ذراعى حين نجلس فوق أحد المقاعد ، وهناك يبدو العقيق مليئاً بالضوء فى المساء . كانت لديها طريقتها

الرقيقة للاتكاء على كتفى ، ونبقى هكذا حتى المساء ، نحس بالنهار فى داخلنا بدون أن نتحرك أو نتكلم . كم عرفنا فى الصمت إلى أى حد وصل حبنا ! كان حب مارسلين أقوى من أن تعبر عنه بالكلمات ، وكم كنت أعانى أحياناً من هذا الحب ، وكأنه نفخة ريح قوية تهب فوق مياه آسِنَة ، فأقل شعور يظهر فوق جبهتها يجعلنى أقرأ الغموض عليها ، إنها تسمع حياة جديدة تئن ، تعلقت بها وكأننى فى مياه عميقة نقية ، بعيدة لدرجة نكاد نراها ، لم نكن نرى سوى الحب . آه ! هكذا كانت السعادة ، أعرف أننى أردت التمسك بها منذ تلك الآونة ، مثلما تركت نفسى أستسلم ليديها القريبتين ، لكن بلا جدوى ، فالمياه لاتلبث أن تنفلت ، كنت أحس وأنا على شفا السعادة بأشياء أخرى غير الفرحة التى تلون حبى ، وأيضاً تلون الخريف .

راح الخريف يتقدم ، فيهتز العشب كل صباح ، وعندما يجف يكتسب لونه الذهبى ، وفى ساعات الفجر يصبح أبيض ، ويحط البط فوق سطح البركة مرفرفاً بأجنحته ، ويتحرك بكل وحشية ، ونراه أحياناً يطير ، ويطلق صيحات عالية وهو فى طيرانه العالى حول «لامورنيير» ، واختفى فجأة ذات صباح ، وعرفنا أن بوكاج قد حبسه ، وأخبرنى أنهم يحبسونه دائماً فى الخريف، فى فترة الهجرة وبعد بضعة أيام تغير الجو ، فذات مساء هبت الرياح قوية قادمة من البحر ، جالبة معها المطر من الشمال ، والطيور المهاجرة . كان علىَّ أن أعتنى بمارسلين كل العناية ، راحت حاجتى تدفعنى للذهاب إلى المدينة ، فها هو ذا الفصل السيىء قد بدأ مبكراً ، وها هو ذا ينهش أجسامنا .

راحت أعمال المزرعة تنادينى فى نوفمبر . كان علىَّ أن أتعلم كل الأمور من بوكاج من أجل الشتاء . أعلن لى عن رغبته أن يرسل شارل كى يستكمل تعليمه ، تحدثت معه طويلاً ، وجربت كل السبل ، لكننى لم أنجح فى إقناعه، كل ما وافق عليه هو أن يقصر فترة دراسته كى يسمح لشارل أن يعود فى فترة مبكرة . لم يُخْفِ عنى بوكاج أن تحسن أمور المزارعين لم يحدث بدون متاعب كبيرة ، ثم راح يقدم لى اثنين من الفلاحين يأتمران بأمره ، إنهما تقريباً مزارعان ، أو مستأجران ، أو لعلهما خادمان . بدا الأمر جديداً تماماً كما تنبأ ، دارت هذه المحادثة فى نهاية أكتوبر ، وفى الأيام الأولى من شهر نوفمبر كنا قد غادرنا المكان لنستقر فى باريس .

2

سكنا فى شقة بشارع س . . قريباً من « باسى » ، أشار بها علينا أحد أشقاء مارسلين ، الذى استطعنا زيارته أثناء عبورنا الأخير بباريس ، إنها أكبر من تلك التى تركها لنا أبى . بدت مارسلين قلقة قليلاً ، ليس فقط بسبب الإيجار العالى ، ولكن أيضاً من كل المصاريف التى نتكبدها . رحت أهدىء من كل تخوفاتها ، ورحت أجاهد كى أخفف عنها ، لاشك أن مصاريف الإقامة تستهلك دخولنا فى هذه السنة ، لكن ثروتنا لا بأس بها ، ويجب أن تزيد ، اعتمدت فى هذا على نشر كتابى «ويا له من جنون!» وعلى الإيراد الجديد للمراعى . قلت لنفسى إننى لن أتوقف عن أى مصروف ، فقد كان علىَّ أن أقلل من إحساسى بالتشرد الذى كنت أشعر به .

كنا نقضى الأيام الأولى من الصباح حتى المساء فى الدراسات . وراح شقيق مارسلين ، مضطرًا ، يدخر لنا الكثير . أحست مارسلين بالإرهاق ، وبدلاً من الراحة الواجبة عليها ، كانت تقوم باستقبال الزوار تلو الزوار . زاد البعاد فيما بيننا ، فمارسلين لم تعتد على الناس ، ومع ذلك لم تجرؤ أن توصد أبوابها ، كنت أجدها فى المساء منهكة ، ولم أقلق لتعبها ؛ لأننى لم أعرف سببه الحقيقى ، حاولت أن أقلل من ألمها ، وأنا أضع نفسى دائماً فى مكانها، لكن هذا لم يبعث فى قلبى التسلية . فرحت أقوم برد الزيارات للزوار ، وكان هذا الأمر يساعدنى أحياناً فى التسرية .

لم أكن متحدثاً لبقاً ، فقد كان نزق الصالونات وروحها شيئاً لايعجبنى ، ومع ذلك أحسست بالتوتر . تُرى ماذا حدث منذ تلك الآونة ؟ أحسست وأنا قريب من الآخرين أننى حزين ، غاضب ، ومتضايق وثائر . . ولمرات عديدة ، أنتم يامن أعدكم أصدقائى الوحيدين الحقيقيين ، لم تكونوا فى باريس ، وكان يجب ألاَّ تعودوا إليها قبل فترة طويلة ، هل كان يجب علىَّ أن أكلمكم؟ هل كان يجب أن أجعلكم تفهمون أفضل أننى لست أنا ؟ ولكن كل ما كان ينمو فى داخلى وما أقوله لكم الآن هو ماذا كنت أعرف ؟ لقد بدا لى المستقبل شيئاً أكيداً ، ولم أصدق قط أننى أستطيع السيطرة عليه .

ومع ذلك فقد كنت أكثر غضباً ، فأى سبيل يجعلنى أجد نفسى فى كُلٍّ من هوبير ، وديديه ، وموريس وآخرين ، إننى أعرفكم وأحملكم المسئولية مثلى ، فسرعان ما فهمت أنه من المتعذر أن أتفق معهم ، ومنذ بداية النقاشات الأولى بيننا رأيت نفسى شخصاً مزيفاً ، وأن علىّ أن أتشابه مع ما يعتقدون أننى أكونه ، وأن أبدو غاضباً ، وأن أبدو فى أحسن حال ، وأننى أحمل نفس الأفكار والذوق الذى يتصوزونه فىَّ ، وأننا لايمكن أن نكون أوفياء لذلك أو حتى نتظاهر به .

رأيت على غير رغبتى الناس من مدرستى الأثرية والفقهية ، ولكننى لم أجد شيئاً أتحدث به معهم أكثر من متعة ومن إحساس المرء وهو يتصفح قاموس التاريخ . فى البداية كنت أتمنى أن أعثر على مفهوم مباشر للحياة لدى بعض الروائيين وبعض الشعراء ، ولكنهم لو كانوا يمتلكون هذا المفهوم فيجب أن نعترف أنهم لم يعبروا عنه قط ، ويبدو لى أن أغلبهم لم يعش قط أيضاً ، ولم يسعد بالحياة ولو قليلاً ، لقد تعاملوا مع الحياة بغضب وهم يكتبون ، لا أريد أن أتدخل فى ذلك ولا أؤكد أن الخطأ لايأتى منى . .

من ناحية فماذا أنتظر من الحياة ؟ هذا هو بالتحديد ما أردت أن أتعلمه ، فالواحد منهم يتحدث إلى الآخر بمهارة عن مختلف شئون الحياة ، بدون أن يتحدث عن الدوافع .

أما بالنسبة لبعض الفلاسفة ، الذين كان لهم دور فى تعليمى فإننى أعرف منذ فترة طويلة ماذا يجب أن ننتظر منهم ، سواء كانوا علماء الرياضة أو النقاد ، لقد اهتموا بأبعد ما يكون بالحقيقة المؤلمة ، لم يهتموا إلا بعلم الجبر فى حل المعادلات التى يقيسونها .

عند العودة إلى مارسلين ، لم أُخْف عنها الملل الذى أصابنى ، فقلت لها :

ـ كلهم متشابهون ، كل منهم يمارس وظيفة مزدوجة ، فعندما أتكلم عن واحد منهم يبدو لى أننى أتكلم عن العديدين .

ردت مارسلين : لكن يا صديقى لايمكنك أن تطلب من كل واحد أن يختلف عن الآخرين .

ـ إنهم يتشابهون فيما بينهم ويختلفون عنى .

ثم أكملت بنبرة حزينة :

ـ لا أحد يعرف أنه مريض ، إنهم يعيشون وقد بدت عليهم الحياة ، لايعرفون أنهم يعيشون . فمنذ أن اقتربت منهم لم أعد أعيش ، ماذا أفعل ؟ أنا مضطر أن أتركك فى الساعة التاسعة ، وقبل أن أرحل أمامى وقت لأقرأ قليلاً ، إنها اللحظة الحقيقية الوحيدة فى النهار ، ثم ينتظرنى أخوك عند الموثق ، وبعد الموثق لايتركنى ، فيجب أن أرى بائع السجاد معه ،

ويصحبنى إلى مصنع الأثاث، ولا أتركه إلا عند جاستون ، وأتغذى فى الحى مع فيليب ، ثم أجد «لوى» ينتظرنى فى المقهى ، فأتحدث معه عن الدراسات العبثية لتيودور التى أثنيت عليها عند صدورها ، وكى أرفض دعوته للقاء يوم الأحد كان علىَّ أن أصحبه إلى منزل آرثر ، ومع آرثر أشاهد معرضًا للرسوم المائية حيث تعرض بطاقات عن « البرتين » وجولى . . وأخيرًا أعود منهكًا ، وأجِدُك أكثر تعبًا منى، وأرى آدلين ، ومارت ، وجان ، وصوفى . . وفى المساء أسترجع كل أحداث النهار . . وأحس أن يومى كان غير مفيد ، ويبدو لى أنه كان خاويًا ، وأننى أريد أن أستعيده ، وأن أبدأ ساعاته الواحدة تلو الأخرى ، وأحس بالحزن لدرجة البكاء .

لم أجرؤ أن أقول إننى لا أعرف كيف أعيش ، ولا ما هو الطعم الذى تذوقته لحياة أكثر اتساعًا ، وأقل نضارة ، وأقل همًّا من أى حياة أخرى ، بدا لى هذا السر أكثر غموضًا ـ سر البعث ـ رحت أفكر ، لقد ظللت شخصًا غريبًا بين الآخرين كشخص عائد من بين الموتى ، فى البداية لم أحس إلا بغضب شديد ، ولكن ما لبث أن انتابنى شعور جديد للغاية ، لم أحس بأى كبرياء ، وأؤكد على ذلك حتى عند نشر الأعمال التى حققت لى الكثير من التقريظ ، ترى هل هى الكبرياء ؟ ربما ، لكن أى نوع من الغرور اختلط بى ؟ إنها المرة الأولى التى أعى فيها قيمتى الحقيقية ، وما يفصلنى عن الآخرين يميزنى ويجعلنى مهمًّا ، وإذا لم يَقُل أى شخص إنه لا يمكنه أن يتكلم فإننى أعرف كيف أقول نيابة عنه .

سرعان ما بدأت دراستى ، لقد شدنى الموضوع ، غرقت فى درسى الأول بكل ما أملك من مشاعر جديدة ، أما بالنسبة لازدهار الحضارة اللاتينية

فقد رحت أمشط تلك الثقافة ، مرتقيًا إلى أحاسيس البشر ، بطريقة غامضة تشير إلى موفور الصحة التى تتجمد وتتعارض مع كل اتصال روحى مع الطبيعة ، تختبىء تحت مظهر الحياة المُلِحَّ ، وعندما تستمر الحياة تتكلم حيث الروح ، وتلمع ، ثم تموت ، وأخيرًا تدفع كل أفكارى لأقول : إن الثقافة المولودة من الحياة تقتل الحياة .

استنكر المؤرخون نزعة التعميمات البالغة السرعة . واستنكر البعض الآخر طريقتى . . أما الذين امتدحونى فقد تصرفوا كأنهم لم يفهمونى كما يجب .

وبمجرد صدور دراستى التى كنت أحلم بها للمرة الأولى رأيت «مينالك »، لم أقابله من قبل إلا قبل زواجى بقليل ، لقد رحل من أجل القيام ببعض الاكتشافات البعيدة التى كان يخبرنا عنها أحيانًا لأكثر من عام، لم أعجب به قط فيما قبل ، كان يبدو فخورًا ، لم يهتم بحياتى ، كم دهشت لرؤيته فى محاضرتى الأولى ، لقد أبعدتنى عن وقاحاته ، أما الابتسامة التى بدت لى ساحرة فقد كنت أعرف أنها نادرة ، كان شخصًا عبثيًّا ، أُثيرت حوله فضيحة وجدت فيها الصحف فرصة ذهبية لتلطيخه ، لقد جرحت كرامته وتميزه ، وتملكته رغبة الانتقام ، وما أثارنى أكثر هو أنه بدأ يوجه لى شتائمَ رحتُ أرد عليها .

ـ يجب أن تترك للآخرين فرصة ليكونوا على حق ، وأن يكون هذا باعثًا للعزاء ، فهم لا يملكون شيئًا آخر .

لكن « المجتمع الصالح » كما يشير هؤلاء الذين ، حسبما يقال « يتبادلون

الاحترام » ، عليهم أن يعتقدوا أنهم يتوجهون نحوه ويجعلونه صالحًا فى حقارته ، مما جذبنى نحوه بقوة غامضة ، وجعلنى أقترب منه وأن أقبّله بمودة أمام الجميع .

هأنذا أرى مع من أتحدث ، وها هى ذى المتاعب تتجاذب فيما بينها ، فأبقى وحدى مع « مينالك » . وبعد الانتقادات الساخنة والتقريظات الحمقاء انطلقت بعض كلماته حول دراستى ، فقال :

ـ أنت تحرق ما تحبه . حسنًا ، لقد تأخرت ، فقد اندلعت النيران ، ولا أعرف هل أنتظرك أَوْ لا ؟ أنت تثير فضولى وأنا لا أتحدث عن طيب خاطر ، لكننى أود أن أتحدث معك ، لنتناول معًا العشاء هذا المساء .

أجبته : يا عزيزى « مينالك »، يبدو أنك نسيت أننى متزوج .

عَلَّقَ : فعلاً ، فأنا أرى الرباط العاطفى الذى جرؤت أن تكشفه لى ، لقد تصورت أنك حر . . خشيت أن أراه مجروحًا ، فقد بدا ضعيفًا ، فأخبرته أننى سألحق به عند العشاء .

فى باريس كان « مينالك » يتصرف كالمسافرين ، فهو يسكن الفنادق ، وينتقل بين غرف عديدة وكأنها شقته ، طالما أن هناك من يخدمه ، إنه يأكل على سجيته ، ويعيش على سجيته ، يتمدد فوق الأرض . وعلى الأثاث الذى بهرته قذارته ، بعض الأقمشة ذات الثمن المرتفع التى جاء بها من نيبال والتى انتهى ، كما قال ، به الأمر أن يقدمها إلى متحف ، حدثنى قبل أن ألحق به أنها كبيرة للغاية ، فاجأته عندما دخلت ، ورحت اعتذر وأنا أزعج مائدته ، فقال لى :

ـ لم تكن لدىَّ النية قط لمقاطعتك ، أعلم أنك ستتركنى أنتهى ، لو

حضرت أثناء العشاء ، فسوف أسكب لك نبيذ الشيراز الذى كان يغنى «حافظ الشيرازى» من أجله ، لكن الوقت متأخر الآن ، يجب أن تصوم لتشربه . هل تتناول أفضل السوائل ؟

ووافقت ، تصورت أنه سيتناوله معى ، لكنه لم يقدم لى سوى كأس . قال وقد أصابتنى الدهشة :

ـ معذرة ، لأننى لا أشرب أبدا !

ـ هل تخشى أن تبلغ الثمالة ؟

أجاب : آه ! على العكس ! ولكننى أمسك بنفسى حتى لا أصل إلى حد الثمالة ، يجب أن أحتفظ بوعيى .

ـ وتسكب للآخرين الشراب ؟

ابتسم وقال :

ـ لا أستطيع ، إنها من فضائلى ، من الجميل أن أجد فيها رذائلى .

ـ على الأقل فأنت تدخن ؟

ـ ليس كثيرًا ، إنها ثمالة غير شخصية ، سلبية ، ومن السهل قهرها ، أبحث فى الثمالة عن لهاث ، وليس عن دوام الحياة .

ـ لنترك هذا . هل تعرف من أين جئت ؟ من «بسكرة» . عرفت أنك مررت من هناك ، أردت أن أقتفى أثرك . ماذا حدث فى بسكرة ؟ لم أعتد أن أكون وغدًا إلا لمن لا يبوح لى ، ولما أعلمه بنفسى ، وبفضولى ، أنا أعترف بذلك . لقد بحثت عنه دومًا ، وسألت فى كل مكان أستطيع الوصول إليه ،

خدمني كتماني وأعطاني الرغبة أن أراك ، أعلم أنني يجب أن أعرف الآن ، ولك أن تشرح السبب » .

أحسست بحمرة الخجل ، فقلت :

ـ ماذا تعرف عني يا « مينالك » ؟

ـ هل تريد أن تعرف ؟ لا تخف ! أنت تعرف أصدقاءك جيدًا ، وأيضًا أصدقائي ، وتعرف أنني لا يمكن أن أتكلم عنك مع أحد ، وتعرف أن أبحاثك مفهومة جيدًا !

قلت بلهجة نافدة الصبر : ولكن لم تقل إنني أستطيع أن أكلمك أكثر من الآخرين ، هه ! ماذا عرفت عني ؟

ـ عرفت أنك كنت مريضًا .

ـ لكن هذا لا يفيد في . . .

ـ آه ! إنه مهم للغاية . قيل لي إنك كنت تخرج وحدك بإرادتك ، بلا كتاب ! (وهنا بدأت في الدهشة) وعندما لا تكون وحدك تكون في صحبة امرأتك أو الأطفال . . لا تَحْمَرَّ خجلاً . . وإلاَّ فلن أتابع كلامي . .

ـ دون أن تنظر إليّ . .

ـ أحد هؤلاء الأطفال كان يسمى مختارًا كما أذكر ، جميل مثل جلده ، ولص ، وزمار مثل الآخرين ، ويبدو لي أنه يستحق أن أتكلم عنه طويلاً ، لقد اشتريت ثقته ، وأنت تعرف أن هذا ليس سهلاً ، أعتقد أنه كان يكذب وهو يقول إنه لا يكذب . . هل ما حكاه لي عنك حقيقي ؟

قام « مينالك » وأخرج علبة صغيرة من درج وفتحها ، قال وهو يمد لي

شيئًا ما ليعرفنى : هل هذه المقصات كانت ملكًا لك ؟ إنها صَدِئَةٌ ، من الأبونيت المزيف، لم أجد صعوبة فى التعرف على هذه المقصات الصغيرة التى يملكها مختار .

ـ إنها مِلكْ زوجتى .

ـ يزعم أنك صاحبها ، وأنك أدرت رأسك ذات يوم حين كنت وحدك معه فى الغرفة ، المهم ليس هذا ، فهو يزعم أنه أخفاها فى ملابسه ، وأدرك أنك كنت تراه فى المرآة ، وفوجىء بأنك تنظر إليه بدهشة ، رأيته يسرق ولم تقل شيئًا ! لقد أصابت الدهشة مختارًا نتيجة لهذا الصمت . . وأنا أيضًا .

ـ ليس لدى أى معرفة عمَّا تقول . . كيف عرف أننى دهشت ؟

ـ ليس هذا مهمًّا ، لقد تمتعت بما فيه الكفاية بهذه اللعبة ، فهؤلاء الأطفال يلهون بنا دائمًا ، واعتقدت أنك أمسكت به ، ولكنه هو الذى أمسك بك . . ليس هذا مهمًّا ، فَسِّرْ لى سبب صمتك .

ـ أردت أن يفسر لى ذلك .

ظللنا صامتين لبعض الوقت . راح « مينالك » يمشى فى غرفته الواسعة، ثم أشعل سيجارته ، وما لبث أن ألقاها لتوه ، وعَلَّقَ :

ـ هناك « حِسٌّ » مثلما يقول الآخرون ، حس يبدو أنك تفتقده يا عزيزى ميشيل .

قلت وأنا أجاهد فى أن ابتسم : الحس الروحى ، ربما .

ـ أو ببساطة حس الامتلاك .

ـ أعتقد أنك لم تحس به قط .

ـ لقد أحسسته قليلاً ، انظر هنا ، لا شىء يخصنى فى هذا المكان ، لا شىء بالمرة حتى السرير الذى أنام عليه ، كم أشعر بالخوف من الراحة ، إن الامتلاك أو الملكية تشجعنى على ذلك ، مما يجعلنى لا أنام فى أمان . أحب أن أعيش كى أزعم لنفسى أننى أحيا ، وكى أحفظ نفسى ، حتى فى قمة ثرائى ، فإن هذا الإحساس يصيبنى بحالة من الحذر والضيق . فأروح أعطى الحماس لحياتى ، لا أستطيع أن أزعم أن الحب خطر ، ولكننى أحب حياة المصادفات ، وأريد منها المزيد فى كل لحظة ، وبكل شجاعة ، وكل سعادة ، وكلى موفور الصحة .

قاطعته : إذن، ماذا يقربك منى ؟

ـ آه ! أنت تفهمنى بشكل سيىء . يا عزيزى ميشيل ، لقد حاولت ـ بشكل غبى ـ أن أوقظ ضميرى يا صديقى ميشيل لو انشغلت كثيرًا أو قليلاً بمشاكل الناس ، فليس هذا بدافع القبول أو الرفض ، هذه الكلمات لا تعنى شيئًا كبيرًا بالنسبة لى ، لقد كلمتك كثيرًا عن نفسى ، معتقدًا أننى أتورط، فى الكلام، لقد أردت أن أخبرك أن هناك أشخاصًا لا يمتلكون حس الملكية ويبدو أنك تملك الكثير ، وهذا شىء خطير .

ـ ماذا أملك إذن !

ـ لا شىء ، إذا أخذت الأمر بهذا المفهوم . . . فعليك ألاَّ تكمل أبحاثك . ألست مالكًا فى مقاطعة نورماندى ؟ ألم تجىء من مقامك هناك ؟ ألم تَعِشْ حياة بذخ فى يأس ؟ أنت متزوج وتنتظر طفلاً ، أليس كذلك ؟

قلت وقد نفد صبرى : حسنًا ! هكذا يثبت ببساطة أننى أعرف كيف أمارس حياة أكثر خطورة ـ مثلما تقول ـ منك .

كرر « مينالك » بقوة : طبعًا . . ببساطة .

ثم استدار فجأة ومد لى يده :

ـ إذن ، وداعًا ، يكفى هذا فى مسائنا ، لن نقول أفضل من ذلك ، إلى اللقاء قريبًا .

ولم أره بعد ذلك لفترة طويلة .

شغلنى الهم والقلق من جديد ، ذات يوم مدنى أحد العلماء الإيطاليين بوثائق جديدة حيث كنت أقيم أبحاثى ، أحسست بدرسى الأول صعبًا على الفهم ، وأنه قد فتح شهيتى من أجل التوضيح بأسلوب مختلف ، وخاصة الدروس التالية ، رحت أفهم من خلال تجربتى بأن كل ما فعلته كان من قبيل المصادفة ، وأنه كم من المثقفين يجب أن يمارسوا قوتهم فى هذا المضمار ؛ لأنهم لم يفهموا نصف كلمة ، أما بالنسبة لى فلم أستطع أن أفهم حتى كلمة ، وأعترف بذلك ، إنه جزء من العناد الذى امتزج بحالة من الثقة الطبيعية ، وما كان علىَّ أن أقوله من جديد ، بدا لى أكثر عجالة ، وأصبح من الصعب علىَّ أن أقوله ، بل وأن أسمعه .

لكن كم من العبارات تصبح شاحبة عندما نكتبها ! فهل كانت الحياة ، عند أقل بادرة من « مينالك » أكثر بلاغة من أبحاثى ؟ آه ! لقد فهمت جيدًا فى تلك الفترة أن التعليم شىء معنوى لدى العديد من الفلاسفة القدامى الذين كانت لديهم حصيلة كبيرة من الكلمات .

رأيت « مينالك » فى بيتى مرة ثانية بعد ثلاثة أسابيع من لقائنا الأول . حدث ذلك بعد اجتماع حضره الكثيرون ، وكى نتجنب أى إزعاج يومى

فضَّلْتُ أنا ومارسلين أن نترك أبوابنا مفتوحة فى مساء يوم الخميس ، ثم نقوم بإغلاقها فى الأيام الأخرى ، وفى كل خميس يأتى أصدقاؤنا . يتيح لنا اتساع قاعتنا أن نستقبل أعدادًا كبيرة منهم ، يطول الاجتماع كثيراً قبل أن يحل الليل، أعتقد أننى أجذبهم ، خاصة بطيبة مارسلين ، وحمية النقاش فيما بينهم ، أما بالنسبة لى فلم أجد منذ الأمسية الثانية من هذه الأمسيات شيئًا يستحق أن نسمعه ولا أن أقوله ، رحت أخفى ضيقى ، وأنا تائه من حجرة التدخين إلى الصالة ، فالغرفة القديمة ، والمكتبة . أردد أحيانًا جُملة ، وأتأمل شيئًا ، وأتطلع حولى كأننى تائه .

راح أنطوان ، وايتيان ، وجود فرى يتناقشون فى الغرفة ، وهم يستندون على مقاعد زوجتى ، أما هوبير ولوى فقد راحا يتحسسان بلا حذر ، وجربا المياه المجمدة فى مجموعة أبى . وفى غرفة التدخين وضع ماتيا سيجارة فوق المائدة كى يسمع ليونارد بشكل أفضل . كانت المائدة مصنوعة من خشب الورد ، وفوقها كأس من الكوارسو ، انسكب فوق السجادة ، أما قَدَمَا ألبير الموحلتان فقد داستا فوق أريكة ، ولطختا القماش ، أما الدخان الذى ينفسونه فقد جعل من استعمال الأشياء أمرًا مرعبًا . . وانتابتنى رغبة غامضة، أن أدفع كل ضيوفى فى أكتافهم ، لقد فقدت الموبيليا ، والأقمشة والأوشام كل قيمتها عند أول محاولة فاتسخت ، أشياء وأشياء أصابها المرض، وكأن الموت قد ترك أثره فيها ، أردت أن أصور كل شىء ، وأن أضع على كل شىء مفتاحًا خاصًّا بى ، فكرت أن « مينالك » سعيد برغم أنه لم يحصل على شىء! أما أنا فأريد أن أحتفظ لنفسى بكل ما يسببه لى من معاناة ، وأنا أتساءل من أجله ، فماذا يهمنى فى كل هذا ؟

فى صالة صغيرة أقل إضاءة يفصلها زجاج بلا قصدير ، لم تستقبل

مارسلين سوى بعض المقربين ، كانت متمددة فوق إحدى الأرائك ، بدت شاحبة تمامًا ، ورأيتها بالغة التعب ، فأحسست بالخوف ، مِمَّا جعلنى أؤكد أن هذا الاستقبال سيكون الأخير من نوعه . كان الوقت متأخرًا ، ورحت أنظر إلى ساعتى ، وأحسست أن فى جيب سترتى مقصات مختار الصغيرة .

ـ لماذا سرقها ؟ هل من أجل تدميرها و إتلافها ؟

فى تلك اللحظة طرق أحدهم على كتفى ، فاستدرت فجأة ، إنه « مينالك » إنه تقريبًا الوحيد الذى يرتدى زيه الرسمى ، جاء لتوه ، شدنى كى أقدمه إلى زوجتى ، لم أكن قد فعلت ذلك بعد . بدا « مينالك » أنيقًا ووسيمًا ، وله شوارب متهدلة ومجعدة تجعل وجهه أشبه بوجه القرصان ، ينم البرود على وجهه عن الكثير من الشجاعة والحيرة والطيبة . لم يكن أمام مارسلين سوى أن تخبرنى أنه لا يروق لها ، وبعد أن تبادل معها بعض العبارات الجامدة اللطيفة ، سحبته إلى غرفة التدخين .

فى الصباح علمت المهمة التى كلفه إياها وزير المستعمرات ، فقد تحدثت صحف كثيرة عن الموضوع ، وعن مغامراته التى يبدو أنها تنافت مع قواعد مهنته ، فى الأمس بالغت الصحف كثيرًا فيما يتعلق بالخدمات المؤداة للوطن وللبشرية من قبل الاكتشافات التى أسفرت عن استكشافاتهم الأخيرة، بدا كل شىء كأنه لا يلتزم بأمر إلا لهدف إنسانىّ ، برغم أننى عهدت فيه التفانى من أجل الآخرين ، والإخلاص ، والجرأة ، وكأنه قد استعاد شيئًا من حقه من كل هذا المديح .

بدأت أهنئه ، فقاطعنى عند الكلمات الأولى قائلاً :

ـ ماذا ؟ وأنت أيضًا يا عزيزى ميشيل ، أنت تشتمنى ، أترك هذه

السفاسف للصحف ، إنهم يبدون مندهشين أن رجلاً له تقاليده يمكنه أن تكون له بعض الفضائل . لا أعرف كيف أمارس بنفسى تلك الامتيازات والمزايا التى يزعمونها ، إنها جميعها أشياء عمومية ، لا أزعم شيئًا سوى كل ما هو طبيعى ، فالمتعة التى أحسها تجعلنى أشعر أننى يجب أن أفعلها .

قلت له : هذا يمكن أن يذهب بك بعيدًا .

رد « مينالك » : لقد حسبتها جيدًا ، إذا كان كل من يحيطون بنا يمكنهم إغواؤنا هكذا ، فإن أغلبهم يفكر ألاَّ يحصل بنفسه على مكسب جيد إلا من خلال الضغط ، لا يعجبهم سوى الضغط ، فمن خلاله يزعم كل إنسان أن به تشابهًا خاصًا ، كل شخص يختار رئيسه ثم يثيره ، حتى ولو لم يختر الرئيس الذى يغضبه ، فهو يوافق على الرئيس الذى اختاره . وأعتقد أن هناك أشياء أخرى يجب قراءتها فى الإنسان ، ونحن لا نجرؤ ، لا نجرؤ أن ندير صفحة ، إنه قانون الإثارة ، كما أسميه قانون الخوف ، نحن خائفون أن نكون وحدنا ، وألاَّ نجد شيئًا ، هذا الإرهاب المعنوى يبدو لى بشعًا ، إنه الجبن المزدوج ، ترى من يحاول ؟ إنه الشخص الذى يحس فى نفسه بالتناقض، وهو أيضًا الذى يمكنه أن يمتلك شيئًا من الندرة ، ويرتبط بكل ما يعطيه أى إنسان للأمر من قيمة ، وما يحاول أن يبرزه ويثيره ، ويزعم أنه يحب الحياة .

تركت «مينالك» يتكلم عما حدث له قبل شهر من ذلك الحادث ، أما أنا فقد تحدثت إلى مارسلين كى أؤكد لها كلامه ، لكنه ـ وبكل جبن ـ قاطعنى، كررت عليه ـ مثيراً مارسلين ـ الجملة كلمة كلمة التى قاطعنى بها :

ـ عزيزى «مينالك» . . لايمكنك أن تطلب من كل شخص أن يختلف عن الآخرين . .

سكت «مينالك» فجأة ، ونظر إلىَّ بطريقة غريبة ، ثم استسمح منى وأدار ظهره بلا مبالاة ، ثم راح يتحدث مع هكتور فى أشياء غير مفهومة .

وكما قلت ، فإن عبارتى بدت لى غبية ، وأحسست أنها يمكن أن تجعل «مينالك» يصدق أننى أتحسس بالهجوم فى كلماته ، كان الوقت متأخراً ، وضيوفى قد رحلوا ، وعندما خوت القاعة عاد «مينالك» إلىَّ ، وقال لى :

ـ لا أستطيع أن أترككما هكذا ، لقد فهمت بلا شك كلماتكما خطأ .

أجبت : لا ، أنت لم تفهم خطأ ، ولكنها كانت بلا معنى ، ولم أقلها إلا لأننى أعانى من حماقاتهم ، وخاصة أننى أحس أنها تحقرنى فى عيونكم ، وكأنكم أقمتم محاكمة لنا ، أنا أؤكد لك أننى أكره وقاحتى مثلكم ، وكل الرجال أصحاب المبادىء .

رد مينالك ضاحكاً : إنهم كذلك ، الناس الأكثر كراهية فى العالم ، نحن لانُكن لهم أدنى قدر من زلاتهم فهم لايفعلون قط مايتفق مع مبادئهم، إنهم ينظرون إلى ما يفعلونه كأنه أمر سيىء ، فيكاد الشك يكون واخذاً منهم . أحسست بالكلمة تتجمد على شفاهى ، أما الشجن الذى استبد بى فقد عرفنى كيف أن عاطفتى لاتزال حية نحوكما ، لقد تمنيت أن أكون دنيئاً ، ليس فى عواطفى ، ولكن فى الحُكم الذى أصدره .

ـ فى الحقيقة إنَّ حكمكِ خاطىء . .

قال وهو يمسك يدى فجأة . ليس هذا هو المهم ، فيجب أن أرحل

قريباً . كنت أريد أن أراكما ، سيكون سفرى هذه المرة أكثر طولاً من كل السفريات السابقة ، ولا أعرف متى سأعود ؟ يجب أن أرحل خلال الأسبوعين ، فلا أحد يعرف شيئاً عن موعد رحيلى ، وهاأنذا أعلنه لكما فى سرية ، سوف أرحل عند الفجر ، وليلة الرحيل بالنسبة لى فى كل مرة ليلة معاناة مخيفة ، وبصفتك رجل مبادىء : هل يمكن أن أعتمد عليك أن تقضى هذه الليلة الأخيرة قريباً منى ؟

قلت له : لكننا سنلتقى .

ـ لا ، سأكون مشغولاً خلال الأسبوعين ، لن أكون فى باريس ، غداً سوف أرحل إلى بودابست ، وطوال عشرة أيام يجب أن أكون فى روما ، هنا أو هناك يوجد أصدقاء أريد أن أودعهم قبل مغادرة أوروبا ، وهناك شخص آخر ينتظرنى فى مدريد .

ـ حسناً ، سوف أقضى ليلة الرحيل معك .

ـ وسوف نشرب نبيذ شيراز .

وبعد بضعة أيام من هذه الأمسية بدأ حال مارسلين يسوء ، فقد استبد بها التعب ، كانت تتجنب الشكوى ؛ ولأننى أُعِدُّ نفسى مسئولاً عن هذا التعب فقد وجدت أن هذا شىء طبيعى ، وتجنبت إثارة القلق . أخبرنا طبيب عجوز أن الوقت أزف ، وأثناء هذا حدثت متاعب جديدة مصحوبة بحمى ، جعلتنى أستدعى الطبيب ، وهو أمهر المتخصصين ، أدهشه أننى لم أستدعه قبل ذلك ، وأوصى بنظام علاجى متشدد ، كان عليها أن تتبعه منذ وقت طويل ، وبحذر شديد ، وأصبح على مارسلين أن تتصرف بدءا من هذا اليوم وحتى نهاية شهر يناير بشكل مختلف ، فعليها أن تجلس فوق

المقعد طويلاً ، بدون أى قلق ، فلازمها الكثير من الاكتئاب الذى لاتريد أن تعبر عنه . رضخت مارسلين تماماً لتعليمات الطبيب ، ولكنها غضبت قليلاً عندما طلب منها الدكتور أن تتناول «الكينين» لأنها كانت تعرف أن ابنها يمكن أن يعانى منه طوال الأيام الثلاثة ؛ لذا رفضت بإصرار شديد أن تتناوله ، فازدادت الحمى ، ثم كان عليها أن تمتثل، ولكن حدث هذا مع الكثير من الأسى ، كأنها تتخلى عن المستقبل ، وبنوع من الامتثال للقدر رضخت للرغبة التى كانت تعتمل فيها حتى ذلك الحين بطريقة جعلت حالتها تزداد سوءاً طوال الأيام التالية .

رحت أحيطها بأكبر عناية ممكنة ، وتصرفتُ على أحسن ما يكون ، وأنا أكرر كلمات الدكتور الذى لم ير أن حالتها جسيمة للغاية ، ولكن العنف الذى صاحب خوفها انتهى بأننى أعلنت الطوارىء بدورى . آه ! كم هو خطير أن تتوقف سعادتنا على الأمل ! وعلى مستقبل مجهول ، خاصة بالنسبة لى أنا ، لم أجد طعماً للأشياء إلا فى الماضى ، إن إنقاذها المفاجىء حتى لو للحظة مكننى أن أتألم يوماً ، كما رحت أفكر ، لكن المستقبل يفسد الحاضر أكثر من أن يفسد الحاضر الماضى .

وفى أثناء ذلك ، حل المساء الذى وعدت به «مينالك» ، وبرغم تبرمى أن أترك مارسلين فى أمسية شتوية فقد نجحت أن أجعلها توافق على شرف الموعد ، كى أوفى بوعدى ، بدت مارسلين فى أحسن حالاتها هذا المساء ، ومع ذلك كنت قلقاً ، ورحت ألزم مكانى إلى جوارها ، ولكن فى الشارع اكتسب قلقى قوة جديدة ، فرحت أدفعها كأننى أناضل ضدها ، وأثور ضد نفسى قائلاً : من الأفضل أن أتحرر منها ، بلغت هذا شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى حالة عالية من التوتر والحماس الفريد ، والمختلف تماماً ،

وقريباً من القلق المؤلم الذى قد يضطرها للولادة ، ولكن على مقربة منا توجد سعادة. كان الوقت متأخراً ، وسرت بِخُطًا كبيرة . كان الجليد قد بدأ فى التساقط والانهيار ، أحسست بالسعادة وأنا أتنفس جو الليل المنعش ، وأنا أناضل ضد البرد ، وكنت سعيداً وأنا أمشى ضد الريح فى الليل ، وفوق الجليد ، ورحت أحتفظ بطاقتى .

رأيت «مينالك» وقد جاء يستقبلنى فوق درجات السلم ، ينتظرنى نافد الصبر ، بدا شاحباً ومنهكاً قليلاً . خلع عنى المعطف ، وأجبرنى أن أغير حذائى الطويل المبلل ، وأن ارتدى خفًّا فارسيًّا طريًّا ، وفوق منضدة قريبة من النيران كان قد وضع قطع الحلوى ومصباحين يضيئان الغرفة ، سألنى «مينالك» عن صحة مارسلين ، وكى أخفف من حدة الأمر، أجبته :

ـ إنها على أحسن ما يرام .

قال : هل تنتظران طفلكما قريباً ؟

قلت :

ـ خلال شهر .

انحنى «مينالك» نحو النيران ، وكأنه يريد أن يخفى وجهه ، صمت وسكت طويلاً لدرجة أثارت اهتمامى ، لم أعرف ماذا أقول له ، قمت وتحركت بضع خطوات ، ثم اقتربت منه ، ووضعت يدى فوق كتفه ، فى حين استغرق هو فى التفكير . همست :

ـ يجب أن تختار . المهم هو أن تعرف ماذا تريد ؟

سألته : ألا تود الرحيل ؟

وأنا أحس أننى يجب أن أعطيه كلمتى :

ـ يبدو . .

ـ هل أنت متردد ؟

ـ مِمَّ ؟ أنت لك امرأة وطفل . أما أنا فعرفت شكلاً من الحياة لا أحد يعرفه سوى من جربه ، كم أتمنى السعادة للآخرين ، إنه لمن الجنون ، ألا تعرف كيف تمارس السعادة ، أعرف أننى سأرحل غداً ، حاولت أن أصنع سعادة على مقاسى . . احتفظ ببيتك سعيداً وهادئاً .

صحت : إنها قامتى التى أحاول أن أقيس سعادتى عليها ، ولكنى كبرت الآن ، وسعادتى تقبض علىّ ، وأحس أحياناً أننى أختنق .

قال «مينالك» : ياه ! سوف تفعل .

ثم اتجه نحوى ، وحَدَّق فى عينى ، لم أجد شيئاً أقوله . ابتسم بحزن . وَرَدَّ :

ـ نعتقد أننا نملكه ، ونحن نملكه ، اسكب كل «الشيراز» يا عزيزى ميشيل ، لن تذوق مثل طعمه أبداً ، وكُلْ من هذه الفطيرة الوردية التى يصنعها الفُرْس ، أريد أن أشرب هذا المساء وأنسى أننى راحل غدًا ، وأتحدث طول الليل . هل تعرف ماذا يحدث الآن للشعر ؟ وماذا عن الفلسفة ؟ هل مات الأدب ؟ إنها أشياء منفصلة عن الحياة ، لقد كان للإغريق فكرة عن الحياة المثالية ، حيث كانت حياة الفنان حقيقة شعرية ، وحياة الفيلسوف مستمدة من فلسفته وممتزجة بالحياة ، وبدلاً من أن تَدَّعى الجهل فإن الفلسفة تتغذى من الشعر ، والشعر يعبر عن الفلسفة ، كان

هذا شيئاً رائعاً اليوم ، فإن الجمال لايبقى طويلاً ، كما أن الحكمة تنتفى .

قلت له : لماذا تعيش حكمتك؟ ولماذا لاتكتب مذكراتك ؟

ـ أجبت وأنا أراه يبتسم : آه ، ببساطة : ذكريات رحلاتك ؟

عَلَّق : لأننى لا أريد ذكرياتى ، أعتقد أن هذا يمنع وصول المستقبل ، وأنَّ تجاهُلَ الماضى أفضل شىء لنسيان الأمس ، لم أكن سعيداً دوماً ، فهذا لايكفينى .

أثارتنى كلماته التى تسبق فكرتى ، حاولت أن أنسحب للوراء ، وأن أوقفه ، حاولت أن أعارضه ، فقد أثارنى ضد نفسى أكثر مما أثارنى ضد «مينالك» ؛ لذا التزمت الصمت ، أما هو فكان يتحرك جيئة وذهاباً وكأنه وحش فى قفص ، أو كأنه متعلق فى نيران ، وسكت طويلاً ، ثم قال فجأة :

ـ إذا كانت عقولنا المحدودة تعرف كيف تحتفظ بالذكريات ، فإنها تحتفظ بها بشكل سيىء ، والذكريات الرقيقة تتبخر ، والأكثر روعة تفسد . والأكثر لذة تعقبها الأكثر خطورة . نحن إذن نتذكر أكثرها لذة أولاً .

ومرة أخرى خيم صمت طويل ، ثم عاد يتكلم :

ـ أسَف ، ونَدَمٌ ، وتَوْبَة ، إنها أشياء قريبة العهد ، لا أحب أن أنظر إليها من الخلف ، إننى أترك الماضى خلفى بعيداً كأنه عصفور يطير ويترك ظله . آه ، يا ميشيل ! كل البهجة تنتظرنا دوماً ، لكنها تريد أن تجد العش الخاوى ، أن تكون وحيدة ، وأن تصل إليها كأنها أمل . آه يا ميشيل ! تبدو كل البهجة فى هذه الصحراء التى تُفْسَدْ من يوم لآخر ، إنها أشبه بماء منبع إميليه الذى حكى عنه أفلاطون ، لايمكن الاحتفاظ بها فى أى آنية ، وفى كل لحظة تفرغ كل ما تحمله .

تكلم «مينالك» طويلاً أيضاً ، لا أستطيع أن أذكر هنا كل جملة ، فالكثير منها قد تضاخم فى داخلى ، إنها أكثر قوة من أن أحاول أن أنساها بسرعة ، ليس لأنها بدت لى وكأن لا جديد فيها ، ولكنها راحت تعرى أفكارى ، أفكار اكتشفت أن عليها أستاراً ، وأننى قد خنقتها تقريباً ، وانسابت فى السهرة .

وفى الصباح ، بعد أن رافقت «مينالك» إلى القطار الذى أقَلَّه ، سرت وحدى عائداً إلى مارسلين ، أحسست بنفسى مُفْعَّماً بالحزن الشديد ، من هذا الحقد ضد سعادة «مينالك» المجنونة ، وددتها أن تنفعل ، حاولت أن أتجاهلها ، أحسست بالثورة لأننى لم أعرف كيف أرد عليه ، شعرت بالغضب لأنه قال بعض الكلمات حاول فيها أن يشكك فى سعادتى وفى حبى ، لدرجة أنه قال : إن سعادتى أمر مشكوك فيه ، « هذه السعادة الساكنة» كما قال «مينالك» . لم أستطع أن أبعد القلق عن نفسى ، ولكننى أزعم أن هذا القلق يفيد فى تغذية الحب ، تطلعت نحو المستقبل ورأيت فيه ابنى الصغير يبتسم لى ، وقد تشكلت فيه روحى وارتسمت ؛ لذا قررت أن أمشى بِخُطاً ثابتة .

عندما عدت فى الصباح إلى البيت صَدَمَنى شىء غير مألوف منذ الوهلة الأولى ، فقد هرولت الحارسة لتقابلنى ، وأخبرتنى بكلمات مرتعدة أن ألماً مخيفاً قد انفرد بزوجتى فى الليل ، ثم اشتد عليها ، لم تكن تؤمن بخطر البدانة ، وأحسَّتْ بألم شديد ، أرسلتُ فى طلب الطبيب الذى جاء مهرولاً أثناء الليل ، ولم يترك المريضة قط ، أرادت الحارسة حين لاحظت شرودى أن تجعلنى أتماسك ، قالت : إن كل شىء على ما يرام ، وإن . . وأسرعت نحو حجرة مارسلين .

كانت الغرفة خافتة الضوء ، فى البداية لم أستطع أن أميز الطبيب الذى أمسكنى بيده كى أظل ملتزماً الصمت ، ثم بدأ الظلام يكشف عن وجهٍ لا أعرفه ، اقتربت قلقاً ، وبدون أن أحدث ضجة دنوت من السرير ، كانت مارسلين مغلقة العينين ، شاحبة أكثر مما أعتقد ، كأنها ميتة ، أدارت رأسها نحوى بدون أن تفتح عينيها . فى ركن الغرفة المظلم بدا الوجه غريباً ويخفى أشياء عديدة ، ورأيت الأجهزة اللامعة . ورأيت أو اعتقدت أننى رأيت ـ خطًّا من الدم ، وشعرت أننى أترنح ، ثم اتجهت نحو الطبيب الذى أسندنى . فهمت ، وخفت أن أفهم ، سألته بقلق :

ـ والصغير !

هز كتفه بحزن بدون أن أعرف ماذا أفعل . ألقيت بنفسى فوق السرير وأنا أنتحب . آه ! ياله من مستقبل ! تمددت الأرض فجأة تحت خطوتى ، وأمامى لم أر سوى فراغ حيث رحت أترنح بكامل جسدى .

راح كل شىء يخوض فى ظلام الذكريات ، وبدأت مارسلين تتحسن بسرعة ، وتركت لى إجازات بداية العام القليل من الراحة ، استطعت أن أبقى على مقربة منها طيلة ساعات النهار ، كنت أقرأ عليها ، لم أخرج قط إلاَّ وأحضرت لها بعض الزهور . رحت أتذكر عنايتها الرقيقة التى أحاطتنى بها عندما كنت مريضاً ، أحطتها بالكثير من الحب الذى منحته لى فيما قبل وهى سعيدة ، لم نتبادل أى كلمة بشأن الحادث التعس الذى قتل أملنا .

قيل إنه التهاب فى الوريد ، وعندما بدأ فى الزوال أصابها انسداد فى الشريان ، مما وضع مارسلين بين الحياة والموت . كان الجو ليلاً ، وجدت نفسى مرتمياً عليها ، أحس من خلالها أن قلبى يدق أو يعود إلى الحياة ، يالها

من ليالٍ سهرتُ فيها طويلاً ! مركزاً نظراتى الجامدة عليها ، آملاً بقوة الحب أن أهب لحياتها القليل من حياتى . لم أفكر طويلاً فى السعادة ، وكان حزنى وفرحى هو أن أرى مارسلين تبتسم .

انقبض قلبى ، أين أجد القوة لأعد أبحاثى ، ولأقولها ؟ ضاعت ذكرياتى ولم أعرف كيف تتابعت الأسابيع ، ثم حدثت واقعة صغيرة أريد أن أخبركم بها .

ذات صباح ، بعد وقت قليل من الأزمة ، كنت قريباً من مارسلين التى بدت فى حال أفضل ، ولكن أحسن الحال لايزال ينقصها ، لم تقدر أن تحرك سوى ذراعيها . انحنيت كى أساعدها لكى تشرب ، وعندما شربت انحنيت نحوها أيضاً ، وبصوت أضعفه ألمها ، رَجَتْنى أن أفتح خزانة أشارت إليها بعينيها ، كانت الخزانة تحت المائدة ، فتحتها ، كانت مليئة بشرائط من الأقمشة ومجوهرات صغيرة بلا قيمة ، ترى ماذا تريد ؟ أحضرت العلبة قريباً من السرير ، أخرج كل شىء الواحد وراء الآخر : هل هذا ، أو ذاك ؟ . . لا . . لا أحسست أنها قلقة . آه ! يا مارسلين ! هل هذه المسبحة هى التى تريدين ؟ . . حاولت أن تبتسم .

ـ هل تخشين ألاَّ أعتنى بك بما فيه الكفاية ؟

همست : آه ! يا صديقى .

وتذكرت حديثنا فى بسكرة . حساسيتها الشديدة وهى تسمعنى أردد «فضل الله» ، استجمعت جأشى وقلت :

ـ لقد شفيت وحدى .

أجابت : لقد صليت طويلاً من أجلك .

قالت هذا برقة وبحزن ، أحسست فى نظرتها بقلق يبتهل . . أمسكت المسبحة ثم وضعتها فى يدها الواهنة المسترخاة فوق المفرش ، نظرة معبقة بالدموع والحب كأنها تكافئنى ، لم أستطع أن أرد عليها ، وتأخرت لحظة ، لا أعرف ماذا أفعل ، بقيت متضايقاً ، ولم أصل إلى شىء ، قلت لها :

ـ وداعاً . .

ثم تركت الغرفة بشكل عدوانى وكأن شخصاً اصطادنى .

وصل انسداد الشرايين إلى درجة خطيرة ، جلطة دموية خطيرة ، أصبح على إِثْرِها القلبُ ضعيفاً ومنهكاً ، فأَثَّرَ على الرئتين ، وأضعف التنفس ، وجعله صعباً لاهثاً ، تصورت أننى لن أراها بعد ذلك ، لقد دخل المرض فى مارسلين ، وسكن فيها أكثر ، وراح يرسمها ويترك علامته عليها ، إنه لشىء مرعب .

3

أصبح المناخ معتدلاً ، وما إن انتهت أبحاثى حتى نقلت مارسلين إلى «لامورنيير» ، أكد الطبيب أن كل الخطر قد زال ، وكى يتم العلاج فليس هناك من شىء سوى الهواء النقى ، وأنا أيضاً كنت فى أشد الحاجة إلى الراحة ، فقد طالت هذه السهرات التى تحملتها بنفسى ، وخاصة هذا النوع من الحنان التلقائى الذى أحسسته نحو مارسلين حين أصابها انسداد الشرايين ، أحسست فى داخلى نفس المشاعر المرعبة التى تحسها ، أتعبنى كل هذا وكأننى أنا نفسى مريض .

فضَّلْتُ أن أرافق مارسلين إلى الجبال ، ولكنها أبدت رغبتها القوية فى العودة إلى نورماندى ، زاعمة أن أى جولة تجعلها أفضل ، وذكرتنى أنه يجب أن أرى المزرعتين اللتين كلفت نفسى بعض العناية بهما ، وراحت تقنعنى أننى المسئول ، وأننى يجب أن أنجح ، لم نصل إلى درجة أن تدفعنى للجرى فوق الأرض . . لم أعرف أن الكثير من التفانى قد دخل بيننا فى إلحاحها المحبب ، خاصة أننى خشيت أن أعتقد أننى قريب منها فقط من أجل العناية بها ، وأننى يجب أن أعطيها المزيد . . لم أحس أننى بكامل حريتى . . لقد راحت مارسلين تتحسن ، وجرت الدماء فى وجنتيها ، ولم يجعلنى شىء مستريحاً أكثر من الإحساس أن ابتسامتها أقل حزنًا ، وأننى يمكن أن أتركها بدون خوف .

لذا عدتُ إلى المزرعتين ، وهناك حصدنا الشوفان ، كان الجو مليئاً بالأتربة والروائح التى خنقتنى فى بادىء الأمر مثل شراب ملتهب ، بدا أننى منذ عام مضى لم أتنفسه ، أو لم أتنفس أى أتربة ، وجعلنى أحس بالجو بشكل أفضل فوق المنحدر ، حيث كنت أجلس وكأننى مُنْحَنٍ . تذكرت «لامورنيير» رأيت أسقفها الزرقاء ، ومياهها الساكنة ، وتلالها حول الحقول المحصودة ، وأخرى مليئة بالعشب، وعلى مسافة بعيدة منحنى الجدول ، وعلى بُعد أكثر تبدو الغابة التى تنزهت فيها خلال العام الماضى فوق الحصان مع شارل . انطلقت الأغنيات التى راحت تقترب منى ، إنها طيور تكاد تحط فوق كتفى ، هؤلاء العمال الذين أكاد أعرفهم يمثلون بالنسبة لى ذكرى غاضبة ، اقتربتُ منهم ، وابتسمت لهم ، وتكلمت إليهم طويلاً ، وراح بوكاج ذات صباح يخبرنى بحالة المزروعات ، كان يراسلنى بشكل منتظم ، لم يكف عن إبلاغى بأقل حادث جرى فى المزارع ، كانت المحصولات على مايرام ، أكثر مما لو كان بوكاج سيتركها لى ، ومع ذلك راح ينتظر بعض القرارت الهامة ، وخلال بضعة أيام ، وجهتُ كل شىء على أحسن ما يكون ، بلا أى إحساس بالمتعة ، ولكن لمجرد أننى أهب لهذا النوع من العمل حياتى السيئة .

ما إن أصبحت مارسلين فى أحسن حال حتى استعدت لاستقبال بعض الأصدقاء الذين جاءوا يسكنون معنا ، كان مجتمعهم العاطفى والصاخب يعجب مارسلين ، لقد تركت المنزل كثيراً عن طيب خاطر ، فأنا أفضل مجتمع سكان المزرعة ، بدا لى أننى يمكن أن أجد ما أتعلمه أفضل . . كنت أحس بهذا النوع من البهجة عندما أكون على مقربة منهم ، أشعر أنهم يعرفوننى كثيراً فى أثناء دوران الحوار بين أصدقائنا ، أو قبل أن يبدءوا الكلام ؛ لذا كانت رؤية هؤلاء الفقراء تسبب لى سعادة لاتوصف .

قالوا إنهم سوف يردون على كل التساؤلات التى أتجنب أن أطرحها ، وهكذا فإنهم يتحملون وجودى بشكل أفضل ؛ لذا فسرعان ما أدخل فى الحوار معهم ، مثلما أحس بالسعادة وأنا أراقبهم يعملون ، أردت أن أرى ألعابهم ، وأحياناً كنت أجلس معهم على مائدة الطعام ، أو أسمع مزاحهم وأرقب سعادتهم وقد انتابتنى مشاعر حب عاطفية أشبه بها أحسسته نحو مارسلين ، إنه صدى سريع لكل إحساس غريب ، ليس جارفاً ، ولكنه محدد، وحاد ، أحسست فى ذراعى تجاعيد رجل الحصاد ، وكللت من التعب، وشربت خمر التفاح التى يشربونها ، وأحسست بها ترويني وهى تنزلق فى حنجرتى .

بدا لى أيضاً أن وجودى هنا ليس فقط من أجل الالتقاء بالطبيعة ، ولكننى أحسست بنوع من المشاعر التى تثير هذا التعاطف الغريب .

كان وجود بوكاج يسعدنى ، كان عليه أن يجعلنى أُؤدِّى دور السيد عندما يأتى ، ولم أرغب قط فى هذا . رحت أقوم بجولات وأوجه العمال على طريقتى ، لكننى لم أمتط ظَهْر الحصان خشية أن أحس أننى سيدهم فعلاً برغم التحذيرات التى تنتابنى حتى لايعانوا كثيراً لوجودى ، ولا يُحْرَجَ أحد أمامى . لقد بقيت أمامهم ـ مثلما كنت فيها قبل ـ مليئاً بالفضول السيىء ، وظل وجودهم غامضاً ، وبدا لى أن جزءاً من حياتهم بالغ السرية ، فماذا يفعلون عندما لا أكون هناك ؟ لم أتصور أنهم لايتسلون ، رحت أعير كل واحد منهم سرًّا عاندت نفسى أن أعرفه . أخذت أطوف ، وأتابع وأتجول ، واهتممت بطبائعهم الواضحة ، وكأننى أستقى من جانبهم الغامض ما يمكن أن ينير لى بعض الجوانب .

أثار انتباهى واحد منهم ، إنه جميل ، وطويل ، وغبى تماماً ، لكنه أثار غريزتى ، لم يكن يفعل شيئاً ، إنه ليس من أبناء البلدة ، تم التقاطه

بالمصادفة ، يعمل بمهارة طوال يومين ، وفى اليوم الثالث يكرُّ لدرجة الموت . تسللت ليلاً كى أراه فى صومعته ، كان راقداً وسط الزبالة ، يغط فى نوم ثقيل لرجل ثَمِل ، أخذت أدقق فيه لوقت طويل ! . . ذات يوم صحو رحل مثلما جاء ، علمتُ فى نفس المساء أن بوكاج قد طرده .

أحسست بالغضب من بوكاج ، واستدعيته وسألته :

ـ يبدو أنك طردت بيير ، هل لك أن تخبرنى السبب ؟

ـ لعل السيد لايريد أن يحتفظ فى مزرعته بسكير قذر ، يمكن أن يفسد العمال .

ـ أعرف أفضل منك ما يجب أن أحتفظ به .

ـ إنه متشرد ! ولانعرف من أين جاء ؟ وفى هذه البلاد فإن صدى مثل هذا الأمر سيىء دائماً . . إنه يمكن أن يشعل النيران فى المزرعة ذات ليلة ، ولعل سيادتك سعيد لما حدث .

ـ هذا أمر يخصنى ، والمزرعة ملكى ، وأعتقد أننى يمكن أن أدير مايعجبنى ، وفى المستقبل حدِّثْنِى عن دوافعك قبل أن تصدر حكمك بإعدام أحد .

قلت : إن بوكاج قد عرفنى طفلاً ؛ لذا أصابه جرح من أسلوبى فى الكلام ، إنه يحبنى لدرجة لاتجعله يغضب ؛ لذا لم يأخذ الأمر على محمل الجد ، لقد سكن الفلاح النورماندى طويلاً مؤكداً أنه لن يتدخل فى شىء ، أى أنه لن يتصرف تبعاً لما يتمتع به من أهمية ، لقد اعتبر بوكاج أن هذا الخصام كنوع من النزوة العابرة .

ومع ذلك لم أود أن أفسد العلاقة بحدث عابر ، رحت أبحث عمَّا يمكن أن أضيفه ، وسألته بعد لحظة صمت :

ـ ألا يجب أن يعود ابنك شارل قريباً ؟

ـ قال بوكاج وقد أحس بالجرح ورأيته قلقاً عليه : اعتقدت أن السيد قد نَسِيَهُ .

ـ أنا أنساه يا بوكاج ؟! كيف يمكن بعد كل ما فعلناه معاً فى السنة الماضية ؟ إننى أعتمد عليه كثيراً بالنسبة للمزارع .

ـ حسناً يا سيدى ، فعلى شارل أن يعود بعد ثمانية أيام .

ـ إذن ، فأنا سعيد يا بوكاج .

ـ وأنا أيضاً .

كان بوكاج على حق ، فأنا لم أنس شارل ، ولكننى لم أُولِه أى اهتمام ، فكيف أفسر أنه بعد الصداقة القوية التى ربطتنا لم أحس نحوه إلا بفضول شجن ؟ لعله انشغالى بأمورى التى لم تكن مثل السنة الماضية . كان يجب أن أهتم بالمزرعتين ، فلم أكن أهتم قبل إلا بالناس الذين يعملون عندى ، وأن أجعلهم يتوترون ، ولاشك أن وجود شارل سيكون مبهجاً ، فهو مقنع للغاية وجدير بالاحترام ، راحت المشاعر الجياشة تفيض بى وأنا أتذكره ، وانتظرت مجيئه بلا أى خشية .

لقد عاد ، ثم كنت على حق فى مشاعرى ، فقد ألقى «مينالك» كل مايتعلق بالذكريات ، رأيتُ رجلاً آخر يدخل بدلاً من شارل ، إنه سيد مقصوص الشعر بدلاً من تلك القبعة السخيفة ، يا إلهى ! كم تغير ! إنه يختلف تماماً ، حاولت ألاَّ أرد بالكثير من البرود ، استقبلته فى القاعة ، ولأن

الوقت ليل فلم أميز وجهه ، ولكن عندما أضأتُ المصباح لاحظت أنه فى أحسن حال .

بدا اللقاء كئيباً ، عرفت أنه لم يكف عن الحضور للمزرعة ، وتجنبت طوال ثمانية أيام الالتقاء به ، وعكفت على أبحاثى ، وعزفت عن ضيوفى ، ثم بدأت فى الخروج ، وانشغلت من جديد .

ملأ الحطَّابون الغابة ، إنهم يأتون إليها كل عام لقطع جزء منها ، قسموها إلى اثنتى عشرة قطعة متساوية ، كانت الغابة تقل فى كل عام ، خاصة بعض الأشجار التى ندر أن نجد مثلها ، ففى خلال اثنى عشر عاماً سوف تكون حطاماً .

تم هذا العمل فى الشتاء ، ثم قبل الربيع تم الاتفاق على البيع ، كان على الحطابين أن يفرغوا من عملهم ، ولكن نتيجة لإهمال الأب هورتفان ، تاجر الأخشاب الذى يدير العملية ، جعل الربيع يأتى بسرعة ، وتكومت الأخشاب عبر البقايا الميتة من الأشجار ، وأخيراً قام الحطابون بتفريغها ، حدث هذا بعد أن أصابوا البراعم الجديدة فى الصميم .

هذا العام تجاوز إهمال الأب هورتفان ـ المشترى ـ كل خشيتنا ، كان يجب أن أترك له الشحنة بسعر بخس ، هل سوف يضغط بقوة كى يقطع غابة اشتراها بثمن ضعيف ؟ ومن أسبوع لآخر راح يمارس العمل محتجًا أحياناً على غياب العمال ، وأحياناً أخرى بأن الجو سيىء ، ثم على حصان مريض ، وعلى المسائل التمويلية ، وأعمال أخرى .

أغضبنى هذا إلى حد كبير فى الصيف الماضى ، أما هذا العام فالأمر هادىء تماماً ، لم أُخْفِ الخطأ الذى فعله بى هورتفان ، فهذه الغابة التى تحتضر كانت جميلة ، رُحْتُ أتنزه فيها سعيداً منشرحاً ، أرقب الصور ،

وأفَاجَأُ بالأفاعى ، وأجلس طويلاً فوق أحد الجذوع النائمة التى تبدو كأنها على قيد الحياة ، والتى تبرز منها بعض العساليج الخضراء من خلال الفتحات .

وفجأة ـ وفى النصف الأول من أغسطس ـ قرر هورتفان أن يرسل رجاله . جاء ستة رجال زاعمين أنه يمكنهم إنهاء العمل فى عشرة أيام ، كان جزء من الغابة يكاد يلمس مقاطعة «فالتارى» ، وافقت على تسهيل أعمال الحطَّابين، وأن أرسل لهم الطعام من المزرعة ، وكان الرجل الذى عليه أن يقوم بذلك يدعى «بوت» ، إنه أحد رجالى الذين كنت أتحدث إليهم عن طيب خاطر ، حاولت أن أراه بدون أن أذهب من أجل ذلك إلى المزرعة ؛ لأننى لم أكن أخرج فى تلك الآونة إلا قليلاً ، ولم أترك الغابة لبضعة أيام إلاَّ قليلاً . ولم أعد إلى «لامورنيير» إلا من أجل ساعات الراحة . كان علىَّ أن أرقب العمل ، ولكن الحقيقة أننى كنت أرقب العمال .

أحياناً ينضم إلى هذه المجموعة من الرجال الستة اثنان من أبناء هورتفان، الأول فى العشرين من عمره ، والثانى فى الخامسة عشرة ، يَبْدُوَانِ نحيفين ، وجامدىَ الملامح وكأنهما من عرق أجنبى ، علمت فيما بعد أن أمهما إسبانية . اندهشت فى البداية ، كيف جاءت إلى هنا ؟ ولكن هورتفان كان نزقاً فى شبابه ، قد تزوجها على ما يبدو فى إسبانيا ؛ ولهذا السبب كان محط أنظار البلد . فى المرة الأولى التى التقيت بأصغر الشابين ـ كما أتذكر ـ كان المطر يهطل ، وكان يجلس وحده فوق عربة مرتفعة وفوقها كومة عالية من أحزمة الحطب ، تمدد بين الأفرع ، وراح يغنى ويدندن بأغنية غريبة لم أسمع بها قط فى البلاد . كانت الجياد التى تجر العربة تعرف طريقها ، تتقدم بدون أن يقودها أحد ، لاأستطيع أن أتكلم عن التأثير الذى أحدثته

هذه الأغنية فىَّ ؛ لأننى لم أسمع مثلها إلا فى إفريقيا . . بدا الصغير ثَملاً فعندما مررت لم ينظر إلىَّ ، وفى اليوم التالى عرفت أنه ابن هورتفان . ولرؤيته ثانية أو لانتظاره فيجب أن أؤخر عملية قطع الأشجار ، لم يأت وَلَدا هورتفان سوى ثلاث مرات ، كانا يبدوان متباهيين ، ولم أستطع الحصول على كلمة منهما .

كان «بوت» ـ على العكس ـ يحب أن يحكى ، وقد أدركت أنه سوف يفهم قريباً أنه يمكن أن يتكلم معى ، إنه لايغضب أبداً ويفهم البلد ، اهتممت بسره الغامض ، وفى كل مرة كان يخيب أملى ، ولا يعمل على إرضائى ، هل هو الذى يتذمر مدعياً أن الأمر ليس سوى خداع جديد ؟ وماذا يهم ؟ سألت «بوت» وأنا أحدثه عن حياة القوطيين ، وعن نصوصهم التى تخرج منها أبخرة كثيفة تصعد إلى رأسى . . وأخشى عند أقل عتاب بيننا ، أن تفقد بيننا الثقة ، ابتسم ، وبروح الفضول التى تنمو فى داخلى . قلت :

ـ والأم ، ألم تقل شيئاً ؟

ـ ماتت الأم منذ اثنى عشر عاماً . . لقد قتلها .

ـ كم عددهم فى الأسرة ؟

ـ خمسة أطفال ، لقد رأيت أكبر الأبناء والأكثر شباباً ، إنه فى السادسة عشرة ، وهو ليس قوى البنيان ، ويريد أن يصبح قسًّا ، ثم الفتاة الكبرى ، وطفلاً من الأب . .

وعرفت ـ بالتدريج ـ أشياء أخرى ، تجعل من منزل هورتفان مكاناً مشتعلاً ، ذا رائحة نفاذة . راح خيالى يلف حوله كأنه ذبابة تطن حول لحم ، وهى تلف . ذات مساء ، حاول الابن الأكبر أن يغازل الخادمة ، وحين

راحت تقاوم ، حاول الأب أن يساعد ابنه فاحتواها بين يديه القويتين، وأثناء ذلك كان الأخ الأصغر يستكمل صلاته فى الطابق الأعلى ، فيما ظل الأصغر شاهداً على المأساة ، يتسلى . تنبهت أن الأمر ليس صعباً . لأن «بوت» بعد فترة طويلة حكى أن الخادمة أرادت أن تفسد القس الصغير .

سألت : ألم تنجح المحاولة ؟

أجاب بوت : كان الأمر أكثر جسامة .

ـ ألم تَقُلْ إن هناك فتاة أخرى ؟

ـ أجل ، لايجب أن ننام عند الأب . . ولكن هذا أمر لايهم الآخرين .

تشجعت من النظرته ، سألت :

ـ ألم تحاول ؟

ـ اخَفَّضَ عينيه متصنعاً وقال مازحاً : أحياناً .

ثم رفع عينيه بسرعة : والصغير أبو بوكاج أيضاً .

ـ أى صغير ؟ هل هو أبو بوكاج .

ـ «السيد» ، إنه الذى ينام فى المزرعة . ألا يعرفه سيدى ؟

أكمل «بوت» : حقًّا ، ففى العام الماضى كان عند عمه ، ولكن المدهش أن «السيد» لم يقابله فى الغابة ؛ لأنه يذهب إلى الصيد فى كل مساء .

قال «بوت» هذه الكلمات الأخيرة بصوت خفيض وهو ينظر إلَىَّ ، فهمت أنه متعجل الابتسام ، ثم أكمل «بوت» وهو يحس بالرضاء :

ـ السيد يعرف مكاناً يصطادون فيه الحشرات ، فالغابة أوسع من أن يكون فيها مكان واحد للصيد .

بدوت أقل حزناً ، برغم أن «بوت» قد تصور أننى سعيد من خدمة بوكاج ، بيَّنَ لى فى أى حفرة من القبة يتمدد «السيد» ALCID ثم عَرَّفنى أى ناحية من السياج يمكننى أن أفاجئه ، كان المكان يقع فوقَ أعلى المنحدر ، وهو مكان ضيق خلف السياج ، يُشكل حاجزاً ، هناك حيث اعتاد السيد أن يقضى ست ساعات كل ليلة . هناك ، كنا نتسلى جيداً أنا وبوت ، حيث نغرس وتداً لايمكن اكتشافه ، وأقسم له أننى لن أتخلى عنه أبداً . لقد رحل «بوت» وهو لايريد أن يفعل شيئاً ، أما أنا فقد تمددت فوق أرض المنحدر ورحت أنتظر .

انتظرت ثلاث أمسيات بلا فائدة ، وبدأت أومن أن «بوت» قد خدعنى، فى الأمسية الرابعة سمعت وقع خطوات تقترب ، خفق قلبى ، وعرفت معنى الخوف اللذيذ المصاحب للترقب ، كانت القبة قد غرست من قبل «السيد» بكل حرفية ، رأيته فجأة يختبر الوتد النحاسى ، أراد أن ينفذ منه ، فسقط ، وراح يضرب فى الهواء كفريسة وقعت فى مصيدة ، لكننى أمسكته ، إنه صبى وقح ، أخضر العينين ، أما شعره الأصفر فيبدو كأنه لشخص لئيم، ركلنى بقدمه ، ثم حاول أن يعضنى ، وعندما لم ينجح ألقى على مسامعى أقذع الشتائم التى سمعتها فى حياتى ، وفى النهاية لم أستطع الإمساك به ، فانفجرت ضاحكاً ، ثم أوقفته فجأة ، ونظر إلَىَّ ، وبنبرة يائسة قال :

ـ أيها الوغد ، إنك تؤلمنى .

ـ انظر .

خَفَّضَ جوربه إلى أسفل حذائه وأشار إلى ندبة ميزتُها بصعوبة ، بدت مائلة إلى اللون الوردى قليلاً . ابتسم قليلاً ثم قال بمكر :

ـ سوف أخبر أمى أنك وضعت الفخ فى طريقى .

ـ يا إلهى ، إنه واحد من فخاخك !

ـ بالتأكيد أنت الذى وضعتها هناك .

ـ ولماذا لاتكون أنت ؟

ـ أنت لاتعرف جيداً ، أرِنى كيف تفعلها .

ـ علمنى .

فى هذا المساء عدت فى ساعة متأخرة من أجل العشاء ، وكالعادة وجدت مارسلين قلقة ، لم أحكِ لها أننى أقمت ستة أطواق (مصائد) بعيدة عن زئير «السيد» الذى منحته ستة قروش .

فى اليوم التالى ، رحت أراجع معه كل الأوتاد ، وشعرت بالسعادة عندما عثرت على أرنبين بين المصائد ، أطلقت سراحهما ، فالصيد لم يكن من اهتماماتى ، فماذا ستنتاب هذه الفريسة إذن ؟ وكيف يمكن أن نمسكها بدون أن نقترف خطأ ؟ إنه «السيد» الذى أمسكها كما صرح لى . وأخيراً عرفت من «بوت» أن « هورتفان » هو رجل أعمال ، وأنه يجب أن أتدخل بين «السيد» وبين الشاب الأصغر من أبناء ألومسيين ، أكثر من قبل فى هذه الأسرة الغاضبة ، لكن بأى عاطفة سوف أصطاد ؟

كنت أقابل «السيد» فى كل مساء ، فنمسك الأرانب بأعداد كبيرة ، أمسكنا فى إحدى المرات ماعزاً صغيراً ، كان يتحرك بصعوبة ، لا أتذكر أى بهجة سببها لى «السيد» وهو يقتله بدون خوف ، لقد وضعنا الماعز فى المكان الصحيح ، حين استطاع ابن هورتفان أن يأتى للبحث عنه فى الليل .

منذ ذلك الحين لم أخرج من المنزل فى النهار ، حسب إرادتى ، حيث

بدت لى الغابة الخاوية أقل جاذبية ، حاولت أن أعمل بلا هدف ؛ لأننى منذ أن انتهيت من دراستى الأخيرة رفضت أن أكمل الطريق ، إنه عمل ناكر للجميل ، وأصبح يسبب لى أقل قدر من البهجة ، وأصبحت أقل ضجة فى الريف ، وأى صيحة كفيلة بإثارتى . كم من مرة جلست أقرأ بعيداً عن نافذتى حتى لا أرى أحداً يمر ! وكم من مرة خرجت فجأة . . أما الشىء الوحيد الذى كنت قادراً عليه فهو أننى أمتلك أحاسيسى .

ولكن عندما يحل الليل ، والليل هنا يحل سريعاً ، أحس أن ساعتنا قد حانت ، فلا أشك حتى فى الحمال ، أخرج مثلما يدخل اللصوص ، وتصبح عيناى كأنهما عينا طير الليل ، فيشد العشب المتموج العالى انتباهى ، وأيضاً الأشجار الكثيفة ، ويحفر الليل كل شىء ، وتبتعد الأشياء ، فتصبح الأرض بعيدة ، والمسطحات عميقة ، وتبدو الممرات حساسة ، ونحس أننا نعيش وجوداً مظلماً .

ـ ترى أين يتصور أبوك مكانك الآن ؟

ـ فى حراسة الحيوانات فى الحظيرة .

كان «السيد» ينام هناك ، وكنت أعرف ذلك، قريباً من الحمام والدواجن، وكأنه يحبس نفسه هناك كل مساء ، ويخرج من فتحة ضيقة من السقف ، وتلتصق بملابسه روائح الدواجن الدافئة .

ثم فجأة يسقط الصيد ، فيتسلل فى الليل كأنه سيسقط فى فخ ، بدون أى إيماءة وداع ، وبدون أن يقول لى : إلى الغد . كنت أعرف أنه قبل أن يعود إلى المزرعة فإن الكلاب تلزم الصمت . يقابل الصغير هورتفان ويسلمه العلف ، ولكن أين ؟ هذا مالم تتوصل إليه رغبتى ، تهديدات ، ومكائد فاشلة ، لم يكن آل هورتفانِ يتركون أحداً يقترب منهم ، لم أعرف أين يكمن

سر ذلك الانتصار الجنونى والسر الغامض الذى يتراجع دائماً أمامى بالنسبة لهم ؟ هل يمكن أن نتوهم الغموض بقوة الفضول ، فنرى ماذا يفعل «السيد» حين يتركنى ؟ هل ينام فعلاً فى المزرعة ؟ آه ! لم أخف عنه احترامى له ولا ثقتى الزائدة فيه ، لقد أثارنى هذا ، ومنحنى بعض السلوى .

لقد اختفى فجأة ، فأصبحت وحدى بشكل يثير الخوف ، عدت عبر الحقول وسط العشب الكثيف . وقد أسكرنى الليل والحياة البرية والفوضى، وتبللت ملابسى ولوثنى الوحل ، وغطتنى الأوراق ، ومن بعيد بدت «لامورنيير» بعيدة ونائمة ، وكأنها ترشدنى كالمنار ، خاصة مصباح غرفة مارسلين ، لم أستطع أن أنام بالفعل فوق سريرى، ولم أتوقف عن التفكير وقد لمسنى خوف شديد .

كانت حصيلة الصيد هذا العام وفيرة من الأرانب ، والأرانب البرية التى تتابعت على أوتاد المصايد ، ورحت أرى كل شىء يمشى على مايرام ، أما «بوت» فظل يخبرنا طوال الثلاثة الأمسيات أنه سوف يلحق بنا بدون أن يفعل ذلك .

فى الأمسية السادسة من ليالى الصيد لم نجد أكثر من طوقين من الاثنى عشر ، وعندما طلع النهار طلب منى «بوت» مائة قرش كى يشترى الخيط النحاسى ؛ لأن الخيط الحديدى لاينفع فى شىء .

فى صباح اليوم التالى ، غمرتنى السعادة حين رأيت عشرة أطواق عند بوكاج ، وكان على أن أكافئه على حماسه الأكثر حمية مما كان فى العام الماضى، لقد وعدته بعشرة مليمات لكل طوق ممسوك ، وكان علىَّ أن أعطى مائة إلى بوكاج ، وفى هذه الأثناء كان «بوت» قد اشترى لنا الخيط النحاسى بالمائة قرش ، فجمعت مائة جديدة لبوكاج، الذى قال لى وأنا أهنئه :

ـ لستُ أنا الذى يجب أن تهنئه ، إنه «السيد» .

ـ أوه !

كم من دهشة يمكن أن تضيعنا ؟ أحسست أنَّ علىَّ أن أتماسك :

ـ أجل ، أكْمِلْ يا بوكاج ، ماذا تريد ، «السيد» ! أنا رجل عجوز ، وأنا مشغول كثيراً بالمزرعة ، وأصبحت الغابة صغيرة علىَّ الآن ! إنه يعرفها أحسن منى ، إنه شخص لئيم ، ويعرفها أفضل منى ، حيث يروح يفتش ويحصد الصيد .

ـ أنا أعرف ذلك جيداً يا بوكاج .

ـ إذن مقابل المائة قرش التى منحته إياها ، فإننى سأترك خمسة قروش عن كل صيد .

ـ أقسم إنه يستحقها ، عشرين طوقاً فى خمسة أيام ! لقد اشتغل بكل جدية ، كما بذل الصيادون مافى وسعهم ، وعليهم أن يستريحوا الآن .

ـ آه ياسيدى ، فبقدر ما أعطوا بقدر ما نالوا ، فالصيد يُباع بسعر طيب هذا العام ، والسعر أعلى ببضعة قروش .

ورحت أمثل أننى أُصدق بوكاج ، وأن ما يعنينى فى هذا العمل ليس هو الربح المتضاعف الذى يراه «السيد» وأنا أراه يخدعنى ، فترى ماذا سيفعلان بالنقود هو و«بوت» ؟ لا أعرف ، ولن أعرف شيئاً من آخرين ، إنهما يكذبان دوماً ويخدعاننى لمجرد الخداع ، فهذا المساء لم يأخذا مائة قرش فقط ، بل عشر فرنكات أعطيتها لبوت ، وحذرته أنها المرة الأخيرة ؛ لأننا لو استعدنا الأطواق ، فسوق تكون الخسارة كبيرة .

فى اليوم التالى جاء بوكاج لزيارتى ، بدا شديد الغضب ، وكنت أكثر منه

غضباً ، فترى ماذا حدث ؟ أخبرنى بوكاج أن «بوت» لم يعد إلا بصيه صغير من المزرعة ، وأن إحدى الفرائس كانت بولندية ، وعندما واجهه بوكاج بأول كلمة رد عليه وشتمه ، ثم رمى بنفسه عليه وضربه .

قال لى بوكاج :

ـ لو أذن لى سيدى وأعطانى السلطة فإننى سوف أطرده .

ـ سوف أفكر يا بوكاج ، أنا شديد الأسف ؛ لأنك قد تفقد هيبتك ، وأنا أرى أن تدعنى وحدى أفكر ، وَعُدْ هنا بعد ساعتين .

وخرج بوكاج .

لو احتفظت «ببوت» فسوف أفقد بوكاج ، ولو طردت «بوت» فسوف أدفعه للانتقام ، خسارة ! لقد فسد ، وأنا المذنب الوحيد . . ؛ ولذا فعندما عاد بوكاج قلت :

ـ أيمكنك أن تخبر «بوت» أننا لانود رؤيته هنا ثانية .

ثم انتظرت ماذا يفعل بوكاج ؟ وماذا يقول «بوت» ؟ وفى المساء فقط سمعت صدى للفضيحة ، لقد تكلم بوت ، أدركته أولاً من صيحاته التى أطلقها فى مسكن بوكاج ، كان الصغير «السيد» هو الذى يضرب ، أما بوكاج فكان يتحرك جيئة وذهاباً ، سمعته يقترب ، خفق قلبى بقوة ؛ لأنه لايضرب من أجل الصيد ، يالها من لحظة صعبة على المرء ! لقد طرحت كل المشاعر الكبرى ، وعلىَّ أن أتصرف حيالها بشكل حاسم ، ترى أى تفسيرات سوف يختلقها ؟ ترى هل سأتصرف بشكل سيىء ؟ آه . . علىَّ أن أستعيد دورى . . دخل بوكاج ، ولم أفهم شيئاً مما قاله ، إنه أمر عبثى ، ويجب أن أجعله يعيد ما قاله ، إنه يؤمن أن «بوت» هو المذنب الوحيد ، وقد

أفلتت منه الحقيقة ، وهى أننى أعطيت عشرة فرنكات إلى «بوت» ، ولماذا أفعل ؟ إنه رجل من نورماندى ، لقد سرق «بوت» الفرنكات العشرة بالتأكيد، وهو يزعم أننى قد منحتها له ، ثم أضاف الكذب إلى السرقة ، وابتدع قصة لإخفاء سرقته ، ليس بوكاج هو الذى يجب ألاَّ نصدقه . . المسألة لاتتعلق فقط بالصيد ، فقد كان السبب الحقيقى لأن يضرب بوكاج «السيد» هو أن الصغير قد بات خارج المنزل . .

وهكذا أنقذت الموقف ، على الأقل أمام بوكاج ، فكل شىء على مايرام، ترى أى غبى هو «بوت» ! بالتأكيد لن تكون لى رغبة هذا المساء فى الصيد الممنوع .

اعتقدت أن كل شىء قد انتهى ، ولكن بعد ساعة ظهر شارل ، لم يبد عليه أنه يمزح ، فهو يبدو من بعيد أكثر صلعة من أبيه ، على الأقل أكثر من العام الماضى .

ـ حسناً يا شارل ، أنت لم تذهب منذ فترة طويلة .

ـ إذا حاول سيدى أن يرانى فليس عليه سوى أن يأتى إلى المزرعة ، صدقنى، أنا لا أحب الغابة ، خاصة فى الليل .

ـ آه . لقد حكى لك أبوك .

ـ لم يحك لى أبى ؛ لأنه لايعرف شيئاً ، كم هو فى حاجة لأن يعرف .

ـ انتبه يا شارل ، لقد ذهبت بعيداً .

ـ ياإلهى ، أنت السيد وتفعل مايحلو لك .

ـ أنت تعرف يا شارل أننى لا أسخر أبداً من أحد ، ولو فعلت ما يحلو لى فإن هذا لايلغى سواى .

وهز كتفيه هزة خفيفة :

ـ كيف تريد أن يدافعوا عن مصالحك ، عندما تهاجم بنفسك ؟ لايمكنك أن تحمى الحارس وتصطاده .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه . . آه . . يا سيدى ، هذه كلها أشياء لئيمة بالنسبة لى ، وببساطة فإنه لايعجبنى أن أرى سيدى يُكَوِّن عصابة مع هؤلاء الذين يعطلون العمل و يفسدونه .

قال شارل هذا بصوت ملىء بالثقة ، وبدا شخصاً نبيلاً ، لاحظت أنه يتصرف كما يريد ، وأنه يرى أن هذا حق ؛ ولذا لُذْتُ بالصمت ، فأكمل :

ـ لدينا واجبات تجاه ما نملك ، لقد علمنى سيدى فى السنة الماضية ، ولكن يبدو أنه نسى ، يجب أن نأخذ هذه الواجبات مأخذ الجد ، ونتخلى عن اللهو مع . . وإلاَّ أصبحنا غير جديرين بما نملك .

وعمَّنا الصمت .

ـ هل هذا هو كل ما لديك لتقوله ؟

ـ بالنسبة لهذا المساء ، نعم يا سيدى ، ولكن فى أمسية أخرى إذا دفعنى سيدى ، ربما آتى لأقول له : إننى وأبى سنترك لامورنيير .

وخرج بِخُطًا بطيئة وهو يحيينى ، ثم رحت أفكر :

ـ شارل ، إنه على حق ، ولكن هل هذا ما يسميه شارل بالأملاك ؟

جريت خلفه ، ولحقت به فى الليل ، وبسرعة كى أؤكد على قرارى المفاجىء .

ـ أخبر أباك أننى سأعرض « لامورنيير » للبيع .

حيانى شارل بمهابة ، وابتعد بدون أن يقول كلمة ، وبدا كل هذا عَبَثاً .

لم تتمكن مارسلين أن تنزل فى هذا المساء من أجل العشاء ، وأخبرتنى أنها تعانى ، صعدت مسرعاً وقد ملأنى القلق ـ إلى غرفتها ، أكدت لى توًّا : «أنه ليس أكثر من لسعة برد» كما توقعت ، لقد أخذت بردًا .

ـ ألم يمكنك أن تتغطى ؟

ـ بمجرد أن أحسست بالرعشة الأولى ارتديتُ الشال .

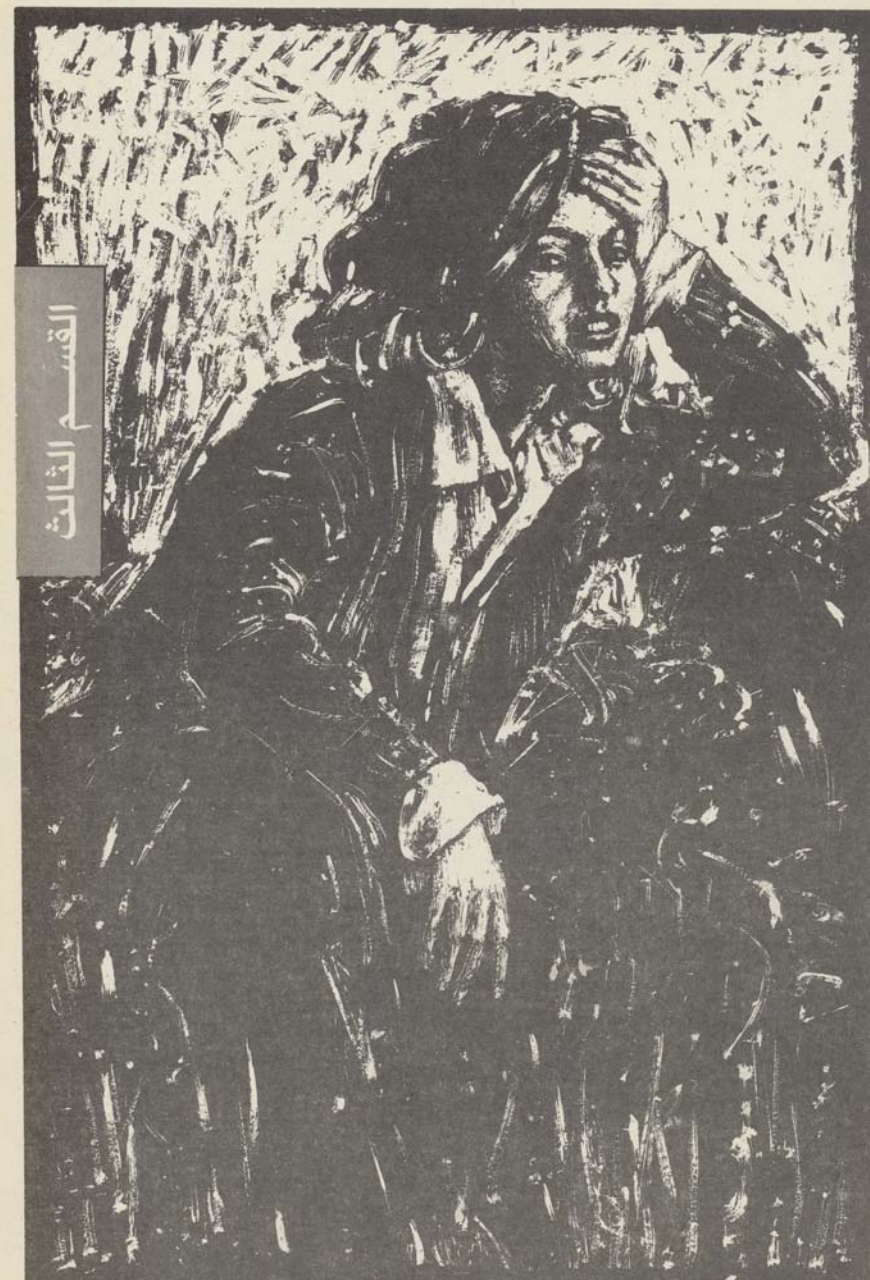
ـ ليس من الواجب أن ترتدى الشال بعدها ، ولكن قبلها .

نظرتْ إلىَّ ، وحاولت أن تبتسم . . آه ! لعل يوماً سيئاً للغاية قد بدأ يجعلها تعانى ، قالت لى بصوت عالٍ : هل تتماسك طالما أنا على قيد الحياة؟ . . لم أسمعها جيداً . رأيت كل شىء يتفكك حولى ، وكل ما تمسكه يدى، لم تعرف يدى ماذا تمسك ، اقتربت من مارسلين ورحت أغطيها بالقبلات، لم تتماسك ، وراحت تبكى على كتفى .

ـ آه ! يامارسلين ! مارسلين ! لنرحل من هنا إلى مكان آخر ، فسوف أحبك مثلما أحببتك فى سورنتو . . لقد اعتقدت أننى تغيرت ، أليس كذلك، لكن سوف تشعرين أن شيئاً لم يغير حبنا .

ولم أشفِ حزنها . . فهناك أمل مَّا قد تعلقت به .

لم يكن الشتاء قد تقدم بعد ، لكن الجو كان مندياً وبارداً ، وراحت براعم الورد تنمو بدون أن تتلون ، وأما ضيوفنا فكانوا قد تركونا منذ فترة طويلة ، لم تعانِ مارسلين إلا من القيام بإغلاق المنزل ، وخلال خمسة أيام كنا قد رحلنا .



القسم الثالث

1 مرة أخرى أن أغلق نفسى على حبى ، ولكن كم أنا فى حاجة إلى سعادة وسكينة ؟ إنها مارسلين التى تمنحنى ذلك ، كأنها راحة أبدية لا تشعر أبداً بالتعب ، وكم أحسست أنها متعبة ، وأنها فى حاجة إلى حبى ، رحت ألفها بحبى وأختلق الحاجة التى أعوزها ، أحسست بآلامها التى لا تحتمل ، سوف أظل أحبها إلى أن تشفى .

آه ! كم اعتنيت بها عاطفيًّا ، وفى السهرات الرقيقة ، مثلما يقوم آخرون بإحياء ضمائرهم وهم يبالغون فى ممارستها . وهكذا طورت حبى ، واستوعبته مارسلين ، كما قلت ، وكما أملت ، فلا يزال ينبض فيها الكثير من الشباب ، كما كانت تأمل ، لقد هربنا من باريس كأننا نقضى ليلة عرس جديدة ، ولكن منذ اليوم الأول لرحلتنا بدأ الألم يزداد ، واضطررنا أن نتوقف فى « نيوشاتل » .

كم أحب هذه البحيرات ذات الضفتين اللازورديتين ! بلا أى رخام ، ومياهها مثل المستنقع اختلطت طويلاً بالأرض ، وتسربت بين عيدان البوص ، كان علىَّ أن أجد غرفة من أجل مارسلين فى فندق مريح تطل على البحيرة ، ولم أتركها طيلة النهار .

راحت تتحسن برغم أننى منذ اليوم التالى أحضرت طبيباً من لوزان ،

أبدى الطبيب قلقه ، وبدا الأمر غير مجدٍ ، حاول أن يعرف شيئاً عن أسرة زوجتى ، هل عرفت حالات عديدة من الدرن ؟ أجبت بنعم . لم أكن متأكداً ، أشعرنى بغم حين قال إننى السبب فى كل هذا . وسألنى عمَّا إذا كنت مريضاً قبل أن أعتنى بمارسلين ؟ بحت له بكل شىء ، برغم أن الطبيب لم يطرح ذلك إلا بشكل عارض ، فإنه أكد لى أن المرض يعود تاريخه إلى فترة زمنية قديمة ، ونصحنا بالجو النقى فى أعلى جبال الألب ، مؤكداً أن مارسلين سوف تبرأ ، كنت أرغب أن أقضى الشتاء بأكمله فى «أنجادين» ، خاصة أن مارسلين لم تكن تحتمل السفر ، ومع ذلك رحلنا .

كم أذكر كل حدث عشناه على الطريق ، كان الجو ملبداً وبارداً ، فارتدينا أكثر الفراء دفئاً . . وفى « كوار » لم تتوقف الزوبعة ، فمنعتنا تماماً من النوم ، وأخذت نصيبى من ليلة بيضاء لم أحس فيها بالتعب ، لم أنزعج قط من هذه الضجة ، سوى أن مارسلين لم تجد لها مكاناً فى غرفتى ، حاولت أن أنام برغم الضجة ، وكانت مارسلين فى أشد حاجة إلى النوم . وقبل فجر اليوم التالى رحلنا ، وجلسنا فى نفس الأماكن فى العربة المتجهة إلى «كوار» ، انطلقت الجياد بشكل جيد يسمح لنا أن نصل إلى « سان موريتز » فى يوم واحد .

عبرنا « تفنكسنان » و « لوجوليه » و « سمدان » . . . وأذكر كل شىء ، ساعة بساعة ، شخص يأمل كل ما هو جديد ، ونقاء الهواء ، وصهيل الجياد ، وسط جوعى ولهاث الظهر أمام الفندق ، والبيض المسلوق الذى أحبه فى الشوربة ، والخبز والنبيذ المثلج ، هذه الأطعمة الخشنة كان تسبب ألماً لمارسلين ، فلم تستطع أن تأكل سوى القليل ، أو لا تأكل شيئاً بالمرة سوى بضع قطع من البسكويت الجاف التى اشتريتها لحسن الحظ من على

الطريق . كنت أرى غروب النهار ، وسرعة صعود الظل على منحنيات الغابات ، ثم عند المحطة ، أصبح الهواء أكثر حيوية وأكثر حركة . وعندما توقفت العربة انغمسنا بكل قلوبنا فى الليل ، وفى الصمت الرخو الهش . . . ليست هناك كلمات أخرى ، فأقل ضجة تأخذنى فى هذا الجو الغريب الشفاف . وفى المساء نعاود الرحيل ، تسعل مارسلين . . . آه !! إنها لا تتوقف عن السعال ؟ أتذكر عربة مدينة سوسة ، يبدو لى أننى كنت أسعل أكثر منها ، إنها تبذل جهداً خارقاً . . كم تبدو ضعيفة ومتغيرة ! فى الظل أكاد أتعرف عليها بصعوبة ، فقد شحبت ملامحها ، ترى هل أراها هكذا بهذين الثقبين السوداويين فى مفارشها ؟ آه ! أنها تسعل بشكل مخيف ! هذه هى حصيلة عنايتى بها ، خفت من التعاطف معها ، ففيه تختبىء كل العدوى ، فنحن يجب ألاَّ نتعاطف إلا مع الأقوياء ، حقًّا ، إنها لا تستطيع! ولن يحدث ذلك قريباً . . . ماذا تفعل ؟ . . . تمسك منديلها وتضعه على شفتيها . وتستدير . . شىء مرعب ! هل سوف تبصق دماً ثانية؟ أشد المنديل بعنف من يديها ، وأنظر إليه فى ضوء المصباح الضعيف . . لا شىء . . لكننى أحس بالمعاناة . تجاهد مارسلين بحزن فى أن تبتسم وتتمتم :

ـ لا . لا يزال بعد .

وصلنا أخيراً . ليس أمامنا سوى الوقت ، نتماسك بصعوبة ، ولا تقنعنا الغرف التى تعد من أجلنا ، نقضى فيها الليل وفى الغد نغيرها . لم يَبْدُ لى شىء جميلاً ولا غالياً . موسم الشتاء لم يبدأ بعد ، فإن أغلب الفندق خالٍ من الروَّاد ، ويمكننى أن أختار ، أخذت حجرتين واسعتين يدخلهما الضوء، وبهما أثاث بسيط ، وقاعة كبيرة تؤدى إلى نافذة يمكن أن نرى فيها

البحيرة الزرقاء ، ولا أعرف أى مرتفع بشع هذا ، إنه ذو انحناءات وعرة ومكشوفة تماماً . هناك كنا نعد وجباتنا . كانت الغرفة عالية السعر ، لكن ماذا يهم ؟ لم تكن أبحاثى معى ، لكننا بعنا « لامورنيير » ، وسوف تسير الأمور على ما يرام . . من ناحية أخرى هل أنا فى حاجة إلى مال ؟ هل أنا فى حاجة إلى كل ذلك ؟ . . . لقد أصبحتُ قويًّا الآن . . أعتقد أن تَغَيُّـراً ماليًّـا كاملاً يجب أن يتم أكثر من تغيُّـر فى صحة مارسلين ، إنها فى حاجة إلى مكان فخم ، فهى ضعيفة . . . آه ! فمن أجلها أود لو أنفقت كل ما أملك . . وسرعان ما ينتابنى الخوف والإحساس بالفخامة . لقد غسلتها ، وحممت فيها مشاعرى الحسية ، ثم تمنيتها شاردة .

وبدأت مارسلين فى التحسن ، وانتصرت عنايتى الصارمة ، وعندما أصبحت قادرة على الأكل ، رحت أحمس شهيتها بكلماتى وتوسلاتى ، كنا نشرب أحسن النبيذ ، وتمنيت أن تتذوقه جيداً ، وكم كانت تسلينى هذه الأنوار الغريبة التى تعبر عنها كل يوم ، إن لها عبق نبيذ الراين ، وشراب «التوكى» الذى يملؤنى بالنشوة الحقيقية ، إنه شراب غريب ، لم يبق منه سوى زجاجة ، ولا أستطيع أن أحدد مذاقه الموجود فى الزجاجات الأخرى .

فى كل يوم كنا نخرج فى سيارة ، ثم على زحافة ، وعندما يتساقط الجليد نتلفع بالفراء حتى الرقبة ، وأولى وجهى للنيران ، وقد ملأتنى الشهية ثم النوم ، لم أكن قد تخليت تماماً عن العمل ، وفى كل يوم كنت أخصص ساعة لأنجز ما يجب أن أقوله . لم يكن التاريخ محل نقاش ، فمنذ أمد طويل وأبحاثى التاريخية لم تعد تهمنى إلاَّ كوسيلة للراحة النفسية ، وتساءلت : كيف ارتبطت من جديد بالماضى ؟ عندما تصورت أن المتاعب تتراكم ، زعمت بقوة الضغط على الموتى أننى أحصل منهم على بعض

تعليمات الحياة السرية . . الآن فإن الشاب « أما لريك » يمكنه أن يكلمنى ، وينهض من مقبرته . لم أسمع الماضى قط ، تُرى هل تكفى إجابة قديمة للرد على سؤال جديد ؟ . وماذا يستطيع الإنسان ؟ هذا هو ما يهمنى معرفته ، وما قاله الإنسان حتى الآن ، ترى ماذا يمكنه أن يقوله ؟ ألم يجهل دوماً ما يكونه ؟ ألم يبق له ما يقوله ؟ نحن نتخبط يوميًّا داخل مشاعر الثراء الخفى الذى يغطى ويخنق الثقافات والمعنويات .

بدا لى أننى وُلدت من أجل نوع مجهول من الوجود ، اندمجت عاطفيًّا فى أبحاثى الصعبة التى أعرف فيها أن على الباحث أن يدفع عن نفسه الثقافة ، والكياسة ، والمعنى .

لم أستطع أن أتذوق شيئاً آخر سوى بعض الاحتتاجات الوحشية ، ولسبب بسيط لم أَرَ فى الشرف سوى القيود والاعتراضات والخوف ، أعجبنى أن نتحابَّ وكأنه أمر صعب ونادر . بدت عادتنا ذات عامل مشترك وأبدى متعاقد عليه ، إنها فى سويسرا تمثل جزءاً من التوافق ، فهمت أن مارسلين فى أمسِّ الحاجة إليها ، ولكننى لم أخف عنها أفكارى ودراساتى الجديدة لتلك الأفكار . لقد كانت تمتدح هذا الشرف الذى تتنفسه فى نيوشاتل من خلال الجدران والوجود ، قلت :

ـ دراستى تكفينى بشكل متسع ، لدىَّ ما يكفى من الشرفاء لدرجة مثيرة، وليس لدى ما أخشاه منهم ، ليس لديهم ما يقولونه . . الشعب السويسرى شريف ! ولا شىء يهمه ، إنه يعيش بلا جرائم ، ولا حكايات ، ولا أدب ، ولا فنون ، إنه أشبه بزهرية خالية من الورد والأشواك .

كم يضايقنى هذا البيت الشريف ، خاصة ما أعرفه عن ماضيه ، ولكن

خلال شهرين أصبح هذا الملل نوعاً من الصرع ، رحت أفكر فى الرحيل .

كنا فى منتصف يناير ، ولقد تحسنت مارسلين كثيراً ، وتلاشت الحمى عنها ببطء ، وبدأ الدم يورد خديها ، مثلما كانت قبل المرض ، لم أجد صعوبة فى إقناعها أن كل شىء على ما يرام ، وأن هذا الجو كان مناسباً ، وأنه من الأفضل الآن أن ننزل إلى إيطاليا حيث أرض الربيع الدافئة التى ستساعد على شفائها نهائيًا ، لم أجد صعوبة فى إقناع نفسى بذلك بعد أن مللت كثيراً من هذا العلو الشاهق .

ومع ذلك ، فالآن، راح الماضى الكريه يستعيد قوته وسط كل هذه الذكريات التى تغرينى ، والتدريبات السريعة فى التزحلق ، واللعب فى الهواء الجاف ، وتلطخ الجليد ، والمشى الحذر فى الضباب ، وصفاء الأصوات الغريب ، وظهور بعض الأشياء المفاجىء . ظل البعض فى القاعة وهم يقرءون ويشاهدون المناظر الرائعة عبر الزجاج ومناظر الجليد التى تخفى معالم العالم الخارجى . جمعت الأفكار بشكل حسى . . . ورحت أتزحلق على الجليد معها ، فوق البحيرة النقية المحاطة بأشجار الأرز الضائعة ، ثم أعود معها فى المساء .

كان النزول إلى إيطاليا بالنسبة لنا أشبه بدوامات السقوط . بدا الجو جميلاً ، رحنا نغوص فى الهواء الدافىء والكثيف ، بدت الأشجار متجمدة فى أطرافها : الأرز ، والصنوبر ، بدت خضرة الأشجار الداكنة غارقة فى البلل ، وأن علىَّ أن أترك الحياة المجردة ، وبرغم الشتاء فقد رحت أتخيل العطور تفوح فى كل مكان ، آه ! منذ وقت طويل لم نضحك إلا من الظلام! لقد أثملنى الحرمان ، وأسكرنى العطش ، مثلما يسكر آخرون من

النبيذ . كانت حياتى المالية مستقرة ، وعلى عتبة هذه الأرض الزاخرة والواعدة لشهيتى المتفجرة ، يكمن حب ضخم يعصف بى ، ويتسرب أحياناً من أعماق جسدى إلى رأسى ويخترق أفكارى .

لم يستغرق هذا الوهم الربيعى سوى القليل من الوقت ، واستطاع أن يزعجنى تغير الموقف المفاجىء للحظة ، ولكن ما إن غادرنا ضفتى بحيرات « بلاجيو » و « كوم » حيث أقمنا بضعة أيام حتى وجدنا الشتاء والمطر ، أما المطر الذى عانينا منه فقد كان فى « أنجادين » ، وهو ليس أكثر جفافاً وخفة مثلما هو فى أعالى الجبال ، ولكنه رطب وجاف ، مما جعلنا نعانى . راحت مارسلين تسعل ، وكى نهرب من البرد توجهنا نحو الجنوب ، ثم تركنا ميلانو إلى نابولى التى كانت ـ تحت أمطار الشتاء ـ أكثر المدن التى عرفتها مرارة ، وعشنا مللاً لا اسم له ، ثم آثرنا العودة إلى روما لنبحث عن الدفء والراحة ، فأجرنا غرفة واسعة فوق مرتفعات « بيشينو » ، ذات موقع متميز ، ولم أشعر بالارتياح فى فنادق فلورنسا . وأجرنا « فيلاّ » رائعة لمدة ثلاثة أشهر تطل على « وادى شيلى » . لم نبقَ هناك أكثر من عشرين يوماً ، وفى كل مرحلة جديدة كنت أعتنى بكل شىء ، فقد كان علينا أن نعاود الرحيل ، لذا راح شيطان قوى يدفعنى للرحيل ؛ لم نحزم معنا سوى ثمانى حقائب ، واحدة منها مليئة بالكتب ، لم نفتح أيًا منها طوال الرحلة .

لم أذكر أن مارسلين انشغلت بأمر المصاريف ، ولم أحاول أن أتولاها ، فهى منهكة تماماً ، وكنت أعرف أنها يمكنها أن تفعل شيئاً ، وتوقفت عن الاعتماد على نقود مزرعة لامورنيير ، فالمزرعة لم تعد تجلب شيئاً ، أما بوكاج فقد كتب أنه لم يجد مشترياً ، ها هو ذا المستقبل يؤكد أن المصاريف ستكون أكثر . آه ! كما أنا فى حاجة إلى الكثير ودفعة واحدة ! رحت أفكر وأتأمل

وأنا أعانى وأترقب ، فلا شك أن حياة مارسلين الهزيلة تتبدد أسرع من ثروتى .

وبرغم أنها كانت تلقى منى كل عناية ، فإن هذه التنقلات السريعة كانت تتعبها ، ولكن الذى أتعبها أكثر ـ وأستطيع أن أبوح بذلك الآن ـ هو الخوف من أسلوبى فى التفكير .

قالت لى يوماً : أنا أفهم مذهبك ، مذهب العصر ، إنه رائع ! ثم أضافت بصوت خفيض ومحزن : ولكنه مذهب الضعفاء .

أجبت على الفور رغماً عنى : هذا هو المفروض .

ورحت أتشمم ، تحت تأثير وقاحة كلمتى ، هذا الكيان الحساس ينثنى ويرتعد . آه ! ربما تفكرون أننى لم أحب مارسلين ، أقسم إننى أحببتها بقوة، ولم تكن ولم تَبْـدُ لى جميلة مثلما كانت فى هذه المرحلة . لقد انتشر المرض وأنهك ملامحها ؛ لذا لم أتركها ، ورحت أحوطها بكل عناية ، وأحميها وأسهر عليها فى كل لحظة ، ليلاً ونهاراً ، كان نومها خفيفاً ، حاولت أن أجعل نومى أكثر خفة ، أرقبها وهى تنام ، وأستيقظ قبلها ، وعندما أتركها أحياناً ساعة أسير بمفردى فى الحقول أو فى الشوارع ، ولا أعرف أى أهمية للحب والخوف أن تشعر بالملل الذى يربطنى نحوها بسرعة ، وأحياناً أنادى إرادتى ، وأحتج على هذه السلطة وأنا أقول لنفسى : أليس هذا هو ما تساويه ؟ رجل مزيف كبير ، يجعلنى أخشى أن يدوم غيابى ، وأعود وذراعاى محملتان بالزهور ، زهور حديقة لم تتفتح أزهارها . أو نضجت نباتاتها قبل الأوان . . . نعم . أقول لكم : لقد أحطتها برعايتى ، ولكن كيف أعبر عن هذا ؟ لقد قللت من احترامى لنفسى ، وأكثرت من

تبجيلها ، ومن يخبرنى كم من العاطفة وكم من الأفكار يمكنها أن تسكن فى الإنسان ؟

منذ أمد طويل انتهى الطقس السيىء ، ووصل الربيع ، أزهرت أشجار اللوز ، إنه أول مارس . فى الصباح أتوجه إلى ميدان « إسبانيا » ، أرى الفلاحين يهزون الأغصان البيضاء ، وزهور أشجار اللوز محملة فى سلال البائعات ، وكم تبلغ سعادتى حين أشترى باقة يحملها لى ثلاثة رجال ، وأعود بكل هذا الربيع وقد تشابكت الأغصان عند الأبواب ، وتسبح البتلات فوق السجاد ، فأضع منها فى كل مكان ، فى الزهريات ، وتصطبغ القاعة باللون الأبيض ، فى اللحظة التى تغيب فيها مارسلين ، ثم تلهينى فرحتها حين أسمعها قادمة ، ها هى ذى تفتح الباب ، ماذا بها ؟ إنها تتأوه . . تنفجر منتحبة :

ـ ماذا بك يا مارسلين . . . ؟

أسرع نحوها ، وأغطيها بالمداعبات الرقيقة ، وكأننى أعتذر عن دموعها . قالت :

ـ هذه الرائحة تؤلمنى ، إنها النهاية ، هناك رائحة غامضة .

وقبل أن تكمل أمسكت كل الأغصان البريئة الهشة ورحت أحطمها ، وكسرتها جميعاً وألقيتها ، فى حين تفجر الدم فى عينيها ، آه ! لقد حل عليها ربيع لم تعد تحتمله .

كنت أتألم دوماً من هذه الدموع ، وأعتقد الآن أننى أشعر بالذنب ، إنها تندم على مواسم الربيع المنصرمة ، رحت أفكر أن البهجة الكبرى لا تحل إلا على الأقوياء ، أما هى فلا تسكرها الفرحة ، مهما حدث ، ولم تعد تحتمل ما

يمكن أن نسميه السعادة ، وما أطلق عليه « الراحة » . . أنا الذى لم أكن أنشد سوى الراحة .

بعد أربعة أيام ، رحلنا مرة أخرى إلى « سورنتو » ، وفشلت فى أن أجد الدفء . بدا كل شىء مرتعداً ، فالرياح لا تكف عن الهبوب ، مما أنهك مارسلين كثيراً ، أردنا أن ننزل فى نفس الفندق الذى نزلنا فيه أثناء رحلتنا السابقة ، وسكنَّا نفس الغرفة ، ثم رحنا نتطلع بدهشة إلى الديكور المندى أسفل سماء ملبدة بالغيوم ، فها هى ذى حدائق الفندق مبللة وتبدو ساحرة عندما ننزه حبنا فيها .

حاولنا أن نصل إلى بحر باليرمو الذى يوفر لنا المناخ المطلوب ، فعدنا إلى نابولى ، ومن هناك أردنا أن نبحر ، لكننا تأخرنا ، لم أشعر بأى ضيق ، فنابولى مدينة حية لا تعود أبداً إلى الوراء .

كنت أجلس على مقربة من مارسلين طيلة النهار ، وفى الليل تنام مبكرة تَعِبَة ، فأروح أرقبها وهى نائمة ، وأحياناً أنام ، وعندما تبدأ فى اللهاث أحس أنها نائمة ، فأنسحب بخفة ، ثم أرتدى ملابسى وسط الظلام ، وأتسلل إلى الخارج كاللصوص .

فى الخارج أُطلق تنهيدة ، وأتساءل : ماذا أفعل ؟ لا أعرف الإجابة ، فالسماء قد غامت ، وتخلصت من سُحبها ، وبدأت أشعة القمر تملؤها . أحياناً أمشى بلا هدف ، وبلا رغبة أو خشية ، وأنظر إلى كل شىء بعيون جديدة ، وأترقب فى كل ليلة بعينين منتبهتين ، أتنفس رطوبة الليل ، وأضع يدى على أشياء ، وأنا أتجول فى المكان .

فى آخر ليلة أقمناها فى نابولى قمت بجولة حرة ، وعندما عدت وجدت

مارسلين تبكى، أخبرتنى أنها خائفة ، وأنها استيقظت فجأة وأحست بى هناك. رحت أُهدىء من روعها ، وأحدثها عن غيابى ، وعدتها ألاَّ أتركها، ولكن فى أول ليالينا فى باليرمو ، رحت أخل بوعدى ، فخرجت . كانت أشجار البرتقال تطلق زهورها ، وتدفع الرياح إلى خياشيمى بروائحها .

لم نبقَ فى باليرمو سوى خمسة أيام ، ثم اتجهنا إلى « تاورمين » التى اشتقنا لرؤيتها ، هل قلت إن القرية معلقة فى الجبل ؟ كانت المحطة تطل على شاطىء البحر ، اصطحبتنا العربة إلى الفندق مباشرة نحو المحطة حيث رحت أجمع حقائبنا ، ظللت واقفاً فى العربة أتحدث مع الحوذى ، إنه صقلى صغير، جميل كقصيدة ثيوقراط، انطلق يتكلم وكأنه ثمرة طازجة ، قال بصوت ساحر وهو ينظر إلى مارسلين تبتعد :

ـ كم هى جميلة هذه السيدة !!

أجبت : وأنت أيضاً جميل يا فتى !

وبرغم أننى كنت قريباً منه فلم أستطع الإمساك به ، أو أن أجذبه ، تركنى أفعل وهو يضحك . وقال :

ـ كل الفرنسيين عُشَّاق .

أجبت وأنا أضحك :

ـ لكن ليس كل الإيطاليين عُشَّاقًا .

رحت أبحث عنه فى الأيام التالية ، لكننى لم أستطع أن أجده .

تركنا « تاورمين » إلى « سيراكوزة » ، ثم كان علينا أن نكرر رحلتنا الأولى

بنفس الخُطَا ، ونبدأ حبنا من جديد ، ومن أسبوع لأسبوع ، مثل رحلتنا الأولى عندما كنت أتماثل للشفاء ، ومن أسبوع لآخر رحنا نتجه نحو الجنوب، في حين كانت حالة مارسلين تزداد سوءاً .

تملكتنى رغبة جنونية يحكمها العند الأعمى ، خاصة أننى حاولت أن أقنعها أنه يلزمها الضوء والحرارة ، ورحت أتذكر فترة نقاهتى فى بسكرة . . . كان الجو دافئاً أحياناً أقرب إلى باليرمو ، كان معتدلاً ، وقد أعجب مارسلين. لعلها يمكن أن تتحسن هناك ، لكن هل أستطيع الاختيار ، وأن أقرر رغبتى ؟

كان البحر فى سيراكوزة والخدمة من الأمور العادية ، وأجبرتنا السفن أن ننتظر ثمانية أيام ، فى كل لحظة كنت أقضيها قريباً من مارسلين ، رحت أقضيها فى الميناء القديم ، ميناء صغير تفوح منه رائحة الدهانات ، ويمتلىء بالمتشردين ، والبحارة السكارى . كان مجتمعاً مليئاً بأناس يتمتعون بصحبات جميلة ، كم أنا فى حاجة أن أفهم لغتهم ، وأن يتذوقها جلدى جيداً، أما بشاعة المشاعر فتبدو فى عينى مخادعة ، وتبدو عليها صحتها لا بأس بها . قلت لنفسى : إن هذه الحياة البائسة لا يمكن أن تمثل بالنسبة لهم سوى الذوق الذى أتمتع به . آه ! أردت أن أجلس معهم تحت المائدة ، وألاَّ أستيقظ إلا على رعشة الصباح الحزينة ، ورحت أخفى أمامهم رعبى المتنامى ، من كثرة الراحة ، وهذه الموهبة التى تمثل لى حماية من صحتى التى جعلتنى غير مجد ، ومن كل التحذيرات التى نمارسها كى نحفظ أجسادنا من الاتصال المفاجىء بالحياة . تخيلت وجودهم من بعيد ، حاولت أن أتبعهم ، وأنا أغوص فى سكرتهم ، ثم فجأة تراءت لى مارسلين ، ماذا تفعل فى هذه اللحظة ؟ إنها تعانى ، ولعلها تبكى . . . قمتُ مسرعاً ، ورحت

أجرى ، وعدت إلى الفندق ، وبدا لى أنه مكتوب على الباب « هنا . . لا يدخل المساكين » .

تستقبلنى مارسلين بنفس الطريقة . . لا تبدو عليها الثقة أو الشك ، تحاول أن تبتسم برغم كل شىء ، تتناول وجبتها ، وأقوم بخدمتها ، ويبدو الفندق المتوسط فى أفضل حالاته ، وأروح أفكر وأنا آكل : قطعة خبز وجبن ، تكفيها ثمرة شمار ، وتكفينى مثلها ، وربما كان هناك على مقربة منها شخص جوعان ، وهناك من ليس لديه هذا الرزق البسيط ، وها هو ذا على مائدتى شىء أحتفظ به طوال ثلاثة أيام ، حاولت أن أحطم الجدران ، وأن أطرد الضيوف ؛ لأن الإحساس بالجوع يجعلنى أعانى بشدة ، فأعود إلى الميناء القديم ، وأطلب لقيمات صغيرة أملأ بها الجيوب .

فقر الإنسان هو عبوديته للأكل ، إنها تجعله يقبل عملاً بلا متعة ، فكل عمل ليس مبهجاً يثير الكراهية ، رحت أقول لنفسى ، لا تفعل هكذا ، فهذا أمر يثير الملل ، كم أحلم لكل إنسان بهذا الفراغ : دون تفسير . يا للخطيئة ! . . ويا للفـن ! .

لم تناقشنى مارسلين فى أفكارى عندما عدت من الميناء القديم ، ولم أخف عنها أى بشر مساكين أحاطوا بى ، كلهم من البشر ، فهمت مارسلين جيداً ما أحاول أن أكتشفه ، وكأننى جعلتها تؤمن بالفضائل التى تخترعها حسب رؤيتها . قالت لى :

ـ أنت لا تكون سعيداً إلا عندما ترتكب بعض الرذائل ، ألا تفهم أن نظرتنا تنمو وتنتشر إلى حد أن نصبح نحن ما نزعم أن نكون ؟

حاولت أن أفهمها أنها ليست على حق ، ولكن يجب أن أقول : إنه فى كل كيان تبدو لى الغريزة المضاعفة أكثر صفاء .

تركنا « سيراكوزة » وقد أغوتنا ذكريات الجنوب . عند البحر تحسنت مارسلين . . رأيت صوت البحر هادئاً . أسمع صوت الهدير والضجيج المتموج، وغسيل الكوبرى ، عند الواحة ارتفعت فرقعات الأقدام الحافية للغسَّالين . رأيت مالطة بيضاء . ثم اقتربنا من تونس ، وأدركت كم تغيرت!

كان الجو حارًّا ورائعاً ، ويبدو كل شىء جميلاً ، يهتز العشب بتلذذ ، حاولت طويلاً أن أقول لكم كيف أصبحت . آه ! ارتبكت روحى لهذه العقلانية غير المحتملة ! . . . فلم أحس بشىء من هذا النبل فى داخلى .

فى تونس ، النور أكثر كثافة وقوة ، والظل ممتد ، ويبدو الهواء أكثر نقاءً، يلمع فيه كل شىء ويغوص ويسبح . هذه الأرض النشوى تبدو راضية ، ولكنها لا تعبر عن أى رغبة ، وترتفع فيها نسبة الرضاء .

إن أرضى فى إجازة من العمل الحرفى ، كم أحتقر هؤلاء الذين لا يعترفون بالجمال الذى فرض نفسه . الشعب العربى يعيش فنه ويحياه ، ويتغنى به ويشدو كل يوم ، إنه لا يحدده أبداً ولا يحتفظ به فى أى عمل ، وهذا سبب غياب الفنانين الكبار . . . كم آمنت أن الفنانين الكبار هم الذين يُكسبون الأشياء جمالاً طبيعيًّا من خلال ما يقولونه ويرونه : « كيف لم أفهم حتى الآن أن هذا كان جميلاً ؟» .

كان الليل فى القيروان ـ التى لم أكن قد عرفتها جيداً ، حين ذهبت بدون مارسلين ـ جميلاً للغاية ، وكانت حرارة الساحل المنخفضة قد أضعفت

مارسلين كثيراً ، حاولت أن أقنعها بما يلزمنا ، وهو أن نصل إلى « بسكرة » بأسرع ما يمكن ، فقد كنا فى بداية شهر أبريل .

بدا السفر طويلاً ، وصلنا فى اليوم الأول إلى قسطنطينة ، وفى اليوم التالى تعبت مارسلين كثيراً ، ولم نكن قد وصلنا إلا إلى « القنطرة » ، رحنا هناك نبحث عن ظل ظليل أكثر فوجدناه ، راح هذا الظل يزحف إلينا ، ومن فوق المنحدر الذى نجلس عليه كنا نرى الوديان المتعانقة .

فى هذه الليلة لم تقدر مارسلين على النوم ، وتملكها صمت غريب ، وكانت أقل ضجة تُسبب لها إزعاجاً ، كنت أخشى أن تُصاب ببرد ، وسمعتها تسعل فى سريرها ، وفى اليوم التالى رأيتها شاحبة ، فرحلنا .

وصلنا بسكرة التى كم نشدتها . . . ها هى ذى . . ها هى ذى الحديقة العامة ، والمقعد ، عرفت المقعد الذى جلستُ عليه فى الأيام الأولى من نقاهتى ، ماذا يربطنى به إذن ؟ . . . فأنا لم أفتح كتاب هوميروس منذ ذلك الحين ، وها هى ذى الشجرة التى مسست لحاءها ، كم كنت ضعيفاً آن ذاك . . . ! ها هم الأطفال . . . لا لم أتعرف عليهم . كم تبدو مارسلين مَهِيبَة، لقد تغيرت مثلى . لماذا تسعل فى هذا الجو الجميل ؟ ها هو ذا الفندق. ها هى ذى غرفنا وشُرفاتنا . فِيمَ تفكر مارسلين ؟ لم تقل لى كلمة حتى وصلت إلى غرفتها ، فتمددت على السرير ، وبدت تَعِبَةً وقالت إنها تريد أن تنام قليلاً ، فخرجت .

لم أتعرف على الأطفال ، لكن الأطفال عرفونى ، وبمجرد وصولى أحاطوا بى . تُرى هل يمكن أن يكونوا هم ؟ لقد كبروا ، ربما أكثر بعامين ، يا له من أمر مستحيل متعب ! ويا لها من خطايا ! ترى أى بشاعة تبدو فوق هذه

الوجوه التى ينفجر منها الشباب ؟ أى أعمال قاسية تنهك هذه الأجسام الجميلة ؟ رحت أسأل . . « بشير » صبى يعمل فى مقهى ، « وعاشور » يكسب قروشه القليلة بكسر حجارة الطريق ، أما « عطار » فقد فَقَدَ عينه ، وأما صادق فيساعد أخاه الأكبر فى بيع الخبز فى السوق ، بدا عليه أنه أصبح غبيًّا ، وأما نجيب فيعمل جزاراً مع أبيه ، وقد أصبح بديناً ودميماً ، إنه ثرى ولا يريد أن يتكلم إلى رفاقه الذين خاصمهم . . كم من السمات الشريفة تبدو غبية ! ترى هل أجد بينهم ما أكرهه فيما بيننا ؟ وماذا عن أبى بكر ؟ لقد تزوج وهو لم يبلغ الخامسة عشرة . يا له من أمر جسيم ! ومع ذلك قابلته فى المساء ، راح يشرح أن زواجه كان بمثابة صفقة تجارية ، إنه ـ كما أعتقد ـ واجب مقدس ، ولكنه يشرب ويفقد وعيه . . وماذا بقى أيضاً ؟ إنها الحياة! أحسست أن حزنى الذى لا يحتمل قد دفعنى لرؤيتهم ، لقد كان «مينالك» على حق ، فالذكرى ابتداع الأسى .

وماذا عن مختار ؟ لقد خرج من السجن ، واختفى ، ولم يتفق الآخرون معه ، أردت أن أراه ، لقد كان أكثرهم جمالاً ، هل سوف يعرفنى ؟ لقد وجدوه . . ترى هل سيصحبوننى إليه ؟ لا ! لم تبدُ لى ذكرياتى رائعة ، كانت قوته وجماله رائعين . . ابتسم حين تعرف علىَّ :

ـ ماذا فعلت قبل أن تدخل السجن ؟

ـ لا شىء .

ـ هل سرقت ؟

احتج .

ـ ماذا تفعل الآن ؟

ابتســـم .

ـ إذن فليس لديك ما تفعله . . سوف تصحبنا إلى توجورت .

لم تتحسن مارسلين ، ولم أعرف ماذا يحدث لها ، وعندما عدت فى تلك الأمسية إلى الفندق ، راحت تضغط على يدى دون أن تقول كلمة ، وقد أغلقت عينيها ، كشف كمها الواسع عن ذراعها التى أصابها الهزال ، داعبتها وضممتها طويلاً ، كطفل نريده أن ينام . أ هو الحب أم المعاناة؟ أم الحمى التى تجعلها ترتعد هكذا ؟ . . . ربما كان هناك وقت . ألن أتوقف؟ لقد بحثت ووجدت ما هى قيمتى . إنها نوع من العناد الزائد ، لكن كيف أقول لمارسلين إننا سنرحل فى الغد إلى توجورت ؟

إنها الآن نائمة فى الحجرة المجاورة ، القمر مشرق منذ وقت طويل ويضىء الشرفة بكاملها بضياء يثير الخوف ، ولا يمكن أن يختفى . . كان بغرفتى بلاط أبيض ، بدا الضوء متسللاً من النافذة المفتوحة ، وقد غطى الغرفة حتى الباب ، لقد دخل قبل عامين بنفس الطريقة . . . نعم، إنه يتقدم الآن ، وعندما قمت لأنام أسندت كتفى على الباب . . . وتطلعت إلى أشجار النخيل . . . ترى أى كلمات حفظتها فى هذا المساء؟ . . . آه ! نعم ، كلمة السيد المسيح للقديس بيير : « الآن سوف تركن نفسك ، وستذهب إلى حيث تشاء » . ترى أين أذهب ؟ أين أريد أن أذهب ؟ . لم أقرر . إلى نابولى . فى المرة الأخيرة وصلت إلى بوستوم ذات يوم وحدى . . ورحت أبكى أمام الحجارة ! وبدا الجمال القديم بسيطاً ، وراقياً ، ومُبهِجاً ، ومهجوراً ، وأحسست بالفن فى داخلى ، هل أضع شيئاً مكان آخر ؟ ما عادت الأشياء كما كانت ، أبتسم ، الابتسامة مشرقة ، يا إلــهى ، أعطنى القدرة لمعرفة هذه الأجناس الجديدة .

فى صباح اليوم التالى ركبنا العربة ومعنا مختار الذى كان سعيداً وكأنه الملك .

مررنا ببلاد كثيرة على الطريق : « شيجا » ، « كتل دور » ، « معزير » . . بدا الأمر غير محتمل . . فهذه الواحات تثير الضحك ، ليس بها سوى الرمال والحجارة ، وبعض الأدغال التى تنمو فيها زهور غريبة ، وفى بعض الأحيان يتحول النخيل إلى مخابىء ، كم أفضل الواحة فى الصحراء . . هذا البلد ذو المجد الخالد والروعة الأبدية يبدو فيه جهد الإنسان قبيحاً وبائساً . الآن فإن كل الأرض الأخرى تثير فىَّ الملل .

قالت مارسلين : « هل تحب كل ما هو غير آدمى ؟ » .

راحت تنظر إلى نفسها ، وبكل نهم .

بدا الجو مزعجاً قليلاً فى اليوم التالى ، بمعنى أن الرياح اشتدت ، وتلبد الأفق بالسُّحُب ، وراحت مارسلين تعانى ، فقد راحت الرمال التى تتنفسها تحرقها ، وتؤلم حنجرتها ، وتعكس آثار التعب فى نظرتها ، وبدا هذا المنظر العدوانى كأنه يقتلها ، لكن الآن يبدو الوقت متأخراً فيما يتعلق بالعودة ، فخلال بضع ساعات سنكون فى توجورت .

لا أذكر التفصيلات جيداً بشأن هذا الجزء الأخير من الرحلة ، أذكر المناظر فى اليوم التالى ، وما فعلته فى توجورت . وأذكر أننى تذرعت بالصبر جيداً .

اشتد البرد فى الصباح ، وفى المساء هبت ريح عاتية ، ونامت مارسلين بعد أن أنهكها السفر بمجرد وصولها ، تمنيت أن أجد فندقاً مريحاً ، بدت غرفتنا مخيفة ، غزاها الرمل والشمس والذباب ، وكل شىء قذر وغير

منعش ، لم يتغير فيها شيء منذ الفجر . أعددت الطعام ، لكن كل شيء بدا رديئاً لمارسلين ، ولم أستطع أن أجعلها تتخذ قراراً ، أعددنا الشاى معاً ، وانشغلت بالاعتناء بها ، وفى العشاء تناولنا بعض الكعك والشاى الذى أكسبته المياه القذرة طعماً غير مستساغ .

وفى ليلة أخرى ، ظللت حتى المساء قريباً منها ، وفجأة أحسست بخوارٍ فى قواى ، ترى أهو طعم الرماد ، أم التعب ، أم الحزن من الجهد غير الآدمىِّ ؟ أكاد أستطيع رؤيتها ، وأعرف جيداً أن عينىَّ بدلاً من أن تبحثا عن نظراتها فإنهما تركزان فوق فتحتى أنفها السوداوين . كانت تعبيرات وجهها قاتمة ، ولم تكن تنظر إلىَّ . أحسست بمعاناتها وأنا ألمسها ، راحت تسعل كثيراً ، ثم نامت ، ومن لحظة لأخرى تهزها الرعشات .

يمكن أن يكون الليل سيئاً ، وقبل أن يتأخر كنت أود أن أعرف إلى أين أتوجه فأخرج . وأمام باب الفندق ميدان توجورت ، والشوارع ، والجو ، يبدو كل شيء غريباً لدرجة تجعلنى أحس أننى لست الذى يراها ، وبعد لحظات أعود ، وأرى مارسلين تنام هادئة ، وأحس بالخوف فوق هذه الأرض الغريبة التى ينفجر فيها الخطر ، يا له من أمر عبثى ! أحس بشىء يكتمنى فأخرج .

فى الميدان تنتابنى مشاعر مريرة ، الميدان صامت ، تعزف الرياح موسيقا غريبة تمزق المكان ولا أعرف من أين تجيء . . أرى شخصاً يقبل نحوى ، إنه مختار ، قال إنه ينتظرنى وإنه اعتقد أننى سأخرج ، إنه يعرف توجورت جيداً ، وكثيراً ما جاء إليها ويعرف أين يصحبنى ، فتركت نفسى له .

سرنا فى الليل ، ودخلنا مقهى عربيًّا انبعثت منه الموسيقا ، ترقص فيه

نساء عربيات ، هل يسمون هذه الحركات ذات الوتيرة الواحدة رقصاً ؟ أمسكتنى واحدة منهن بيدى ، وتبعتها ، إنها عشيقة مختار الذى صحبها ، ودخلنا غرفة ضيقة بها قطعة أثاث واحدة هى السرير ، سرير منخفض جلسنا عليه . هناك أرنب أبيض محبوس فى الغرفة ، هاج فى البداية ثم سكن وجاء يأكل من يد مختار ، جاءوا لنا بالقهوة ، وبينما راح مختار يداعب الأرنب جذبتنى المرأة نحوها .

آه ! يمكن أن أتظاهر بالسكوت ، لكن ماذا يهم فى هذا الأمر ؟ هل يمكن أن يصبح حقيقة ؟

عدت إلى الفندق ، وبقى مختار هناك طيلة اللَّيْل ، كان الوقت متأخراً ، هبت رياح شديدة مشبعة بالرمل والزوابع برغم الليل ، وما إن مشيت حتى غرقت فيها وهرولت لأعود ، وسرت فى التيار ، ربما استيقظت . . . ربما كانت فى حاجة إلىَّ ؟ لا . . فممر الغرفة مظلم . سمعت صفير الرياح وأنا أفتح ، دخلت برقة فى الظلام ، ما هذه الضجة ؟ لم أعرف سعالها ، فأضأت النور .

كانت مارسلين جالسة القرفصاء فوق سريرها ، وقد وضعت إحدى يديها النحيلتين فوق مسند السرير فى حين غرقت يداها وقميصها فى فيضان الدماء ، وبدا وجهها متسخاً ، أما عيناها فقد اتسعتا بشكل بشع ، ولا أعرف أى صرخة ألم أثارتنى فى صمتها . بحثت فى وجهها الشفاف عن مكان صغير أطبع عليه قبلة ، انطبع مذاق عرقها على شفتى ، غسلت ورطبت جبهتها ووجنتيها على السرير . انحنيت وللملمت المسبحة التى اشترتها من باريس والتى سقطت منها ، وضعتها فى يدها المفتوحة ، ولكن

يدها انبسطت ! لم أعرف ماذا أفعل ؟ وددت أن أطلب النجدة . . سقطت يدها عليَّ فى يأس شديد ، ترى هل تصورت يائسةً أننى أريد أن أتركها ؟ قالت :

« آه ! يمكنك أن تنتظر أيضاً » . . أحسست أننى أريد أن أتكلم ، فأضافت : « لا تَقُل شيئاً ، كل شىء على ما يرام » . ومن جديد لململت المسبحة ، ثم تركتها من جديد . ماذا أقول ؟ لقد سقطت ، انحنيت عليها، ورحت أضغط على يدها .

تركت نصفها على اللوح ، والنصف الآخر على كتفى ، وبدت نائمة قليلاً . . ثم ظلت عيناها مفتوحتين .

وبعد ساعة انسابت يدها من يدى ، واستقرت على قميصها ، بعد أن مزقت الدانتلاّ ، إنها تختنق . وفى الصباح انتابها التقيؤ الدموى .

2

لقد انتهت حكايتى . ماذا أضيف ؟ القبور الفرنسية فى تورجوت بشعة، فقد غطتها النيران . حاولتِ أن أنتزعها بكل ما بقى لى من قوة واهنة فى هذا المكان ، لقد استراحت فى القنطرة ، فى ظل حديقة خاصة كانت تحبها ، حدث هذا منذ ثلاثة أشهر ، هذه الأشهر الثلاثة تبدو وكأنها قد ابتعدت لعشر سنوات .

ظل ميشيل صامتاً فترة طويلة ، وسكتنا نحن أيضاً ، أصاب كُلاًّ منا أَسًى غريبٌ ، لقد حكى ميشيل حكايته بشكل عقلانى ، ولا نعرف كيف نتأكد من التبريرات التى قدمها لنا ، والتى تبدو تقريباً ضالعة ، لقد أنهى قراءة النص دون أى رجفة فى صوته ، وبدون أن نشهد عليه أى حركة أو أى انفعال يزعمه ، تملكته كبرياء جنونية لم تؤثر فينا بالمرة ، حاول إثارة عواطفنا بدموعه ، لكن أبداً ، لم أستطع أن أميز شيئاً فيه حتى الآن فيما يتعلق بالكبرياء، والجمود ، والعفة .

أكمل بعد قليل :

ما يخيفنى هو أننى ما زلت شابًّا ، ويبدو لى أحياناً أن حياتى الحقيقية لم تبدأ بعد . أبعدونى عن هنا الآن وأعطونى أسبابَ وجودى ، فأنا لم أعرف كيف أجده ، لقد تخلصت منه قدر الإمكان ، لكن ماذا يهم ؟ كم أعانى

من هذه الحرية ! صدقونى كم أنا مرهق من جريمتى ! من فضلكم سموها هكذا ، ولكن يجب أن أبرهن لنفسى أنى لم أتجاوز حقى .

لقد كان لدىَّ أثرٌ فكرى عميق عندما عرفتمونى أول مرة ، وأنا أعرف أن هذا يصنع الرجال الحقيقيين ، لكننى لم أبلغ هذا الأمر بعد ، والسبب على ما أعتقد هو المناخ ، فلا شىء يُحبط أكثر من الفكر الذى يلحّ على الإنسان، فكم من لذة تطارد الغريزة ، تحوطها الروعة والموت . أحس الآن بالسعادة ، وأرغب أن أهجرها ، أنام وسط النهار كى أقضى وقت فراغى الذى لا يطاق .

هأنذا هنا ، انظروا إلى الحصى الأبيض الذى أضعه فى الظل ، كم أمسكت بالزَّبَد بين يدى حتى يتلاشى ، فأعاود الأمر من جديد ، أبادل الحَصَى ، وأحاول أن أبلل التى خَفَّتْ برودتها .

مر الوقت ، وحل المساء . . خذونى من هنا ، فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدى ، لقد تحطم شىء ما فى إرادتى ، لا أعرف أين أجد القوة لأبتعد عن القنطرة ، أحس أحياناً بالخوف؛ لأننى لا أستطيع الانتقام ، أريد أن أبدأ من جديد ، أريد أن أتخلص من بقايا ثروتى . انظروا . . فهذه الجدران لا تزال مفتوحة . . هنا لا أرى شيئاً تقريباً . صاحب فندق نصف فرنسى ، منحنى قليلاً من الطعام ، وأَحضَـرَ لى الطفل الذى رأيتموه يهرب ليلاً ونهاراً مقابل بعض القروش . هذا الطفل الذى يبدو متوحشاً مع الغرباء يبدو لطيفاً وفيًّـا . اخته اسمها « ولد نايل » تذهب فى كل عام إلى قسطنطينة ، إنها جميلة ، وكم عانت فى الأسابيع الأولى ، وتجىء أحياناً لقضاء الليل معى ، ولكن أخاها الصغير « على » فاجأنا ذات صباح معاً ،

فثارت غضبته ، ولم يعد طوال خمسة أيام برغم أنه لم يعرف كيف رأى أخته ، كان قبل ذلك يتكلم بلهجة ومعنى ، هل هو غيور ؟ لقد بلغ المهرج هدفه ، فنصفه متضايق ونصفه الآخر يخاف أن يفقدنى ، بعد هذه المغامرة ابتعدت عنى الفتاة غير غاضبة ، ولكن فى كل مرة أقابلها تضحك وتخرج بسبب أخيها . . ولعلها على حق .



أندريـــه جـيـد

ليس من السهل أبداً ترجمة أدب أندريه جيد !

لذا لم يقترب من ترجمة أعماله سوى عمالقة الترجمة فى اللغة العربية مثل الدكتور طه حسين، ومحمود على مراد . والدكتور حمادة إبراهيم، ونظمى لوقا، ونزيه الحكيم .

ومن تقع المهمة ثقيلة على أى مترجم يحاول الخوض فى بحر أندريه جيد، بعد أن سبح فيه هؤلاء العمالقة قبل سنوات . ولعله لهذا السبب ظل إبـداع أنـدريـه جيـد بعيـداً عن القـارىء العربى ؛ وذلك لصعـوبة ترجمتـه ، برغم أهميتـه الشـديدة فى أدب القرن العشرين ؛ لذا فمن المهم أن نقدم للقارىء العـربى نموذجاً من أدب أندريه جيد ، وهو الحائـز على جـائزة نوبـل فى الأدب عـام ١٩٤٧ ، مع التركيز على رواية « اللا أخلاقى » . .

ومن خلال هذه الرواية يمكن أن ندرك أن إنتاج أندريه جيد هو حياته ، وأنه لا انفصام بينهما ، فأكثر ما جاء فى هذه الرواية بمثابة سيرة ذاتية لتجربة الكاتب الخاصة ، التى عبر عنها فى الكثير من كتاباته ، وخاصة فى رسائله إلى أمه، المنشورة فى دار جاليمار .

ولأن حياة الكاتب هى أعماله ، فيهمنا أن نذكر أن أندريه جيد مولود فى ٢٢ من نوفمبر عام ١٨٦٥ فى مدينة باريس الفرنسية ، وقد كان الأب بول جيد مدرساً للقانون فى كلية باريس ، أما أمه فهى جولييت رونورد ، ويقول كلود مارتن فى كتابه عن جيد ، الذى نستمد منه أغلب حديثنا هنا ، إن أسرة الكاتب كانت تتمتع بثراء ملحوظ ؛ ولذا فقد تربى جيد بين الوزراء ورجال الدين ، وأتاح له هذا الأمر أن يتلقى تعليماً راقياً ، ففى عام ١٨٧٧

دخل أندريه المدرسة الألزاسية ، وكانت المرة الأولى التى يبتعد فيها عن أسرته ، وفى المدرسة أصابته أزمة صحية حادة .

فى عام ١٨٨٠ مات الأب ، وأصابت الأم حالة عصبية ، فانتقلت مع ابنها إلى « مونبليه » للإقامة مع العم بول جيد ، وهو أيضاً رجل قانون درس الاقتصاد السياسى ، وبموت الأب ، عاش جيد مع أسرته حياة مختلفة ، فالسكن الجديد ضيق وصغير ، وملىء بمظاهر الفقر ، وفى عام ١٨٨٢ توجه جيد لزيارة خالته ماتيلدا ، وهناك التقى لأول مرة بابنتها مادلين التى ستصبح ذات تأثير قوى فى حياته ، والتى أصبحت شخصيته الرئيسية فى رواية « اللا أخلاقى » ؛ ولذا سوف نخصص مساحة لا بأس بها للحديث عنها .

لقد ربطت الطفولة بينهما ، فهى فتاة رقيقة ، تبكى لأول وهلة ، وقد لعبت هذه الفتاة دوراً كبيراً فى حياة الكاتب ، ففى عام ١٨٨٢ ـ وفى مدينة روان ـ قابلها فى الشارع وهى تبكى . . « بدا لى أن حبى قد نما فى هذه اللحظة ، واسترعت انتباهى بشكل حقيقى ابتداء من هذه اللحظة ، وبدأت أحس بوجودها » .

كانت مادلين تكبره بثلاث سنوات ، وتبدو أكثر عقلاً وحكمة ونُضجًا ، لم تكن تختلط بالشباب ، وكانت تبدو بالغة التواضع .

وربطت بين الاثنين صداقة قوية ، ثم جاءت فكرة الزواج فيما بعد ، وفى تلك السنوات غرق أندريه جيد فى البحث عن الأدب ، وتوغل فى أعماقه ، فاكتشف عبقريته الشاعر الألمانى جوته ، وتعرف على مالارميه وأوسكار وايلد ، أما الصدمة الكبرى للكاتب فكانت فى عام ١٨٩٥ حين ماتت أمه ،

ووجد أن عليه أن يعوض هذا الحب الضائع بالزواج من مادلين ، ثم سافر الاثنان إلى كل من شمال إفريقيا وسويسرا وإيطاليا لقضاء شهر العسل، وهى الفترة التى تدور فيها أحداث رواية « اللا أخلاقى » .

تجىء أهمية التأكيد على حياة الكاتب ، كما جاء على لسان الناقد الفرنسى «بنيامين كريميو» كما جاء فى مجلة الكاتب : « أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب ، قلق ، معقد ، يتركب من عدة شخصيات ، ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر ، ثم لا نلبث أن ندرك أن فنه صورة منه » .

نشر جيد كتابه الأول : « كراسات أندريه والتر » فى عام ١٨٩١ . وفى هذه الفترة كان «جيد» يعيش بعيداً عن باريس ، وراح يكتب العديد من الرسائل إلى أمه ، سكب فيها كل مشاعره نحو أمه ، فهى المخلوق الوحيد فى العالم الذى يستكين إليه . . ولم تكن « كراسات أندريه والتر » سوى إلهام من الأم التى دفعته للقراءة والتثقيف الذاتى ، ففى تلك الفترة كانت فرنسا مشدوهة بأفكار واردة إليها من ألمانيا وبريطانيا ، من ألمانيا جاءت فكرة «الإنسان الخارق» الذى صنعه « نيتشه » فى فلسفته ، ومن بريطانيا جاءت أفكار أوسكار وايلد الذى آمن بضرورة جمال الحياة ، وجمال الفن ، وأحس أندريه جيد أنه يلتقى مع وايلد فى إيمانه بأن على الفنان أن يعيش على هامش العادات الأخلاقية التى يتطلبها المجتمع من الناس .

وفى تلك السنوات عكف جيد على قراءة أعمال كل من دوستويفسكى ، و « موريس باريس » . واهتم بالتاريخ فى اليونان وروما ، وأتقن عدة لغات، منها اللغة العربية ، ثم نشر أعماله التى منها « معاهدة نرجس » عام

١٨٩٢ ، ثم « رحلة أوريان » فى العام التالى ، و « الأغذية الأرضية » عام ١٨٨٧ . ثم تتابعت أعماله مثل « اللا أخلاقى » عام ١٩٠٢ ، و « عودة الابن الضال » عام ١٩٠٧ ، و « الباب الضيق » عام ١٩٠٩ ، و «إيزابيل» عام ١٩١١ ، و « السيمفونية الرعوية » عام ١٩١٩ ، و « المزيفون » عام ١٩٢٦ وبعضها منشور باللغة العربية .

ويقول الدكتور نظمى لوقا فى مقدمته لرواية « السيمفونية الرعوية » : «إن قراءة دوستويفسكى وفرويد قد أكسبت « جيد » قدرة فى التحليل النفسى، وتدعيماً لملكة النقد لديه ، فأعلن أن حقيقتنا تكمن فى تلك الغرائز التى تكبحها التربية وتكبتها فى أعمق أغوارنا ، فإن لم تجد متنفساً لها سممت منابع الحكم العقلى ، وهكذا تتحول الأخلاقيات الظاهرية إلى نفاق ورياء ؛ ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ، ولو أدى ذلك إلى الفضيحة ، ويعتقد أنه ربما ظهرت فى هذا الإطار الصريح شعلة العبقرية» .

« هو إذن ضد الانقياد للأخلاقيات الشائعة ، بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقياداً أعمى ، ولكنه مع هذا احتفظ فى تكوينه النفسى بتيار متدين ، وهذا هو السر فى معظم أعماله ، لاستشهاده فى كثير من المواضيع بالإنجيل » .

وهذه الحرية التى يبيحها الكاتب لنفسه تدفعه دوماً أن يسيطر عليها من خلال شعوره الدينى العميق ؛ لذا جاء فى كتابه الأول « كراسات أندريه والتـر » : « إننى كم أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من العمر ـ وهى السن التى تنطلق من عقالها الشهوات ـ أن أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ» .

وفى الملف الذى أعدته مجلة « الكاتب » عن أندريه جيد تأكيد لهذا

الرأى ، حين رأى الكاتب أن « فكرة أندريه جيد عن التحرر المطلق لم تقضِ على عاطفته الدينية الدفينة ، بل لقد أحدث عنده هذا الإيمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا ـ نتيجة عكسية ، إذ جعله يترك العنان لإحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر بدون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد ، ففى روايته «الأغذية الأرضية » وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية ، يقول : « إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله » وأيضاً : لا تأمل أن تجد سوى الله فى كل مكان » . وفى كتابه « الأغذية الجديدة » المنشور عام ١٩٣٥ ، يقول : « يجب أن نفكر فى الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة . إننى عندما أهجر التفكير فى الخالق إلى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة ، وتفقد حيازتها لمملكة الله » .

وترى « المجلة » أن فكرة جيد هى الفصل بين الناحية الجسدية الغريزية فى الإنسان والناحية المعنوية ، وهى إما الإحساس الدينى أو الإحساس بالشيطان فى الإنسان .

حصل أندريه جيد على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٤٧ . وتوفى فى عام ١٩٥١ ، بباريس .

أمَّا عن شخصية ميشيل فى رواية « اللا أخلاقى » فهى نفسها أندريه جيد، لم يحاول الكاتب أن يواريها، سواء فى علاقته بالحياة، أو بالأشخاص، أو الأماكن . لم يذكر ميشيل أى شىء عن أمه سوى أنها ماتت ، أما الأب فقد اختفى بعد سطور ، وذلك بعد أن طلب منه أن يتزوج مارسلين «مادلين» . وفى هذه الرواية بدا مدى شغف الكاتب بإفريقيا ، وهو ينقل

الأحداث من الجزائر التى عاش فيها ، إلى تونس ، ومدينة « سوسة » بشكل خاص . وقد كتب جيد فى يومياته عن إفريقيا : « إننى أحب أن أكرر دوماً هذه الكلمة الغامضة ، إنها تحمل فى داخلها جاذبية غريبة » .

ويقول الكاتب ـ كما جاء فى كتاب الناقد كلود مارتين عن أندريه جيد : « إننى فى إفريقيا أسمع ، وأرى ، وأتنفس ، مثلما لا أفعل فى أى مكان . وحينما تتسلل عطورها وألوانها وعبقها فى داخلى فإننى أحس بقلبى يفرح وينتحب من العرفان بالجميل .

« خذنى ، خذنى إلى داخل هذه الأرض ، كم أصيح وأنا أحس بضيائها، يا له من ضياء خفيف ومشع ، ليس من المجدى أن أناضل ضدك اليوم ، فأنا اليوم أعرفك أفضل » .


المترجم

محمود قاسم

- من مواليد مدينة الأسكندرية فى ٩ من يوليو ١٩٤٩ .

- يكتب الرواية ، والفقه الأدبى والسينمائى ، وفى أدب الاطفال .

- حصل على جائزة المجلس الأعلى للثقافة فى الفقه الأدبى عامى ١٩٨٣ و١٩٨٥ .

- حصل على جائزة الدولة التشجعية فى أدب الأطفال عامى ١٩٨٨

- حصل على نوط الامتياز من الدولة فى عام ١٩٩٢ .

من كتبه :

فى الرواية :

- لماذا	دار المطبوعات الجديدة . إسكندرية ـ ١٩٨١
- أوريسانا	دار المطبوعات الجديدة . إسكندرية ـ ١٩٨٢
- الثروة	المجلس الأعلى للثقافة ـ ١٩٨٣
- البديل	هيئة الكتاب ـ ١٩٨٧
- وقائع مستوات الصبا	دار الاتحاد العربى ـ دمشق ـ ١٩٩٢

فى الرواية المترجمة

- آلهة الذباب	عن ويليام جولدنج	دار الهلال ـ ١٩٨٤
- شحاذون ومعتزون	عن ألبير قصيرى	هيئة الكتاب ـ ١٩٨٧

- العاشق | عن مرجريت دوماس | هيئة الكتاب ـ ١٩٩١
- منزل الموت الأكيد | عن البير قصيرى | دار سعاد الصباح ـ ١٩٩٢
- العنف والسخرية | عن البير قصيرى | دار الهلال ـ ١٩٩٣

فى الدراسـات :

- الرواية اليهودية فى الولايات المتحدة وفرنسا | آفاق عربية ـ ١٩٨٦
- الاقتباس فى السينما المصرية ـ طبعة ثالثة | نهضة مصر ـ ١٩٩٠
- رواية التجسس والصراع العربى الإسرائيلى | نهضة مصر ـ ١٩٩٠
- الخيال العلمى . أدب القرن العشرين | الدار العربية للكتاب ـ ١٩٩٣
- الأدب العربى المكتوب بالفرنسية | دار سعاد الصباح ـ ١٩٩٤

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب. هل فازوا بها عن جدارة؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل"..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب أدبي عصري، ولكنها تضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية..

من هذا المنطلق لا بد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر. والله الموفق دائماً

فتحي العشري..

الفنيـــون

الإشراف الفنى : **محمد طنطاوى**

التصفيف : **بثينة جمال**

التصحيح : **عبد الحكيم بيومى**

مونتاج : **جودة عبد الصادق**

عربية للطباعة والنشر

٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

صدر من هذه السلسلة

الا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة .. جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب .. ألبيركامى

أحلام الناى .. هيرمان هسّه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

